الفصل الثاني

تعجل الأنبياء والمرسلين والبواعث المحمودة على ذلك

الفصل الثاني
تعجل الأنبياء والمرسلين والبواعث المحمودة على ذلك

مدخل :

إذا كان التعجيل إلى الطاعات يعد ممدوحا، لما فيه من انتهاز الفرص قبل فوات الأوان ، فهناك أيضا تعجل آخر غير مذموم ؛ لما له من بواعث محمودة وأغراض شريفة، وهو ما وقع من الأنبياء والمرسلين -عليهم الصلاة والسلام-.

وقبل الحديث عن المواقف التى تعجل فيها الأنبياء والمرسلون يجدر بنا أولا توضيح عدة نقاط حتى يتضح الأمر وينجلى للقارىء .

أولا : الفرق بين النبى والرسول :-

لقد ذكر العلماء أقوالا كثيرة فى الفرق بينهما نذكر منها أحسنها ، وهو:"أن ما نبأه الله بخبر السماء ، إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبى ورسول ، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبى وليس برسول ، فالرسول أخص من النبى، فكل رسول نبى وليس كل نبى رسولا"(١).

وإنما آثرت ذكر الفرق بينهما ؛ لأن بعض الأنبياء والمرسلين الذين ذكرتهم فى هذا البحث منهم من هو نبى وليس برسول كسيدنا زكريا -عليه السلام- ، ومنهم من هو نبى ورسول كسيدنا محمد -ﷺ- وموسى -عليهما السلام- .

ثانيا : عصمة الأنبياء والمرسلين- عليهم الصلاة السلام- :

ولقد آثرت أيضا ذكر هذه النقطة ؛ لأن بعض المواقف التى تعجل فيها الأنبياء والمرسلون كان الأولى فيها التريث والتمهل ؛ لذلك ورد فيها العتاب من الله -ﷻ- لهم ، وهذا لايقدح فى عصمتهم ولا يقلل من شأنهم ، وإنما هى من قبيل فعل خلاف الأولى ....

العصمة لغة : المنع ، وعصمة الله عبده : أن يعصمه مما يوبقه ، عصمه يعصمه عصما : منعه ووقاه ، واعتصم فلان بالله إذا امتنع به ، واعتصمت بالله:إمتنعت بلطفه من المعصية"(٢).

أما فى اصطلاح أهل الشرع ، فأحسن ما قيل فى تعريفها بأنها:"لطف من الله تعالى يحمل النبى على فعل الخير ويزجره عن الشر مع بقاء الاختيار تحقيقا للابتلاء"(٣).

فالعصمة ثابتة للأنبياء وهى من صفاتهم التى فضلهم الله -ﷻ-بها ، وبها ميزهم على سائر البشر ، فلم يختص الله -ﷻ- أحدا بها إلا الأنبياء الكرام ،حيث وهبهم مولاهم هذه النعمة العظمى ، وحفظهم من ارتكاب المعاصى والذنوب ، صغيرها وكبيرها فلا يمكن أن تقع منهم معصية أو مخالفة لأمر الله –

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية للإمام القاضى على بن على بن محمد بن أبى العز الدمشقى ١٥٥/١ ، ط الأولى ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٧م ، حققه وعلق عليه وأخرج أحاديثه وقدم له د/ عبد الله بن عبد المحسن التركى ، وشعيب الأرنؤوط ، وانظر عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائرى صـ ٢٠٩ ، عيسى البابى الحلبى .

(٢) لسان العرب لابن منظور ، ٢٩٧٦/٤ ، مادة عصم ، باب العين .

(٣) نسيم الرياض فى شرح شفا القاضى عياض ، لـ أحمد شهاب الدين الخفاجى المصرى ٣٩/٤ ، دار الكتاب العربى بيروت لبنان .

ﷻ- بخلاف سائر البشر ، يقول الشيخ/السيد سابق:"الأنبياء معصومون من التورط فى الإثم ، منزهون عن الوقوع فى المعاصى ، فلا يتركون واجبا ولا يفعلون محرما ،ولا يتصفون إلا بالأخلاق العظيمة التى تجعل منهم القدوة الحسنة والمثل الأعلى الذى يتجه إليه الناس ، وهم يحاولون الوصول إلى كمالهم المقدر لهم ، والله سبحانه هو الذى تولى تأديبهم وتهذيبهم وتربيتهم وتعليمهم حتى كانوا قممـا شـامخة وأهـلا للاصطفاء والاجتباء"(١).

والسؤال الآن : هل يصدر عن الأنبياء والمرسلين فعل خلاف الأولى حتى يعاتبوا عليه من قبل الله -ﷻ- ؟

والجواب : نعم ، فهناك أمور دنيوية لا يرد بشأنها نص ولا وحى ، فيجتهد فيها الأنبياء على حسب ما يتراءى لهم ، فإذا أصابوا فبها ، وإن أخطئوا لا يقرهم الله -ﷻ- عليها ، بل يعاتبهم ويرشدهم إلى فعل الأفضل والأكمل لهم .

يقول الشيخ/السيد سابق تعليقا على عتاب الله -ﷻ- الموجه لرسوله فى بعض الآيات القرآنية:"مما لاجدال فيه أن الرسول كانت تصدر عنه بعض التصرفات التى لم يلوح إليه بشىء بخصوصها ، بل كان أمرها متروكا إلى اجتهاده الخاص ، فكان فى بعض الأحيان يؤديه اجتهاده إلى ما هو حسن ، متجاوزا ما هو أحسن منه ، فاعتبر وقوفه عند الرأى الحسن وعدم إصابته ما هو أحسن منه ذنبا بالنسبة إليه ، وبالإضافة إلى مكانته من العلم والعقل والفقه"(٢).

إذن خلاف الأولى هو عبارة عن تخيير بين أمرين أحدهما حسن والآخر أحسن منه ، وباختيار الحسن يصير خلاف الأولى ، إذ الأولى هو الأحسن ، فهو اللائق بمقام النبوة.

يقول د/محمد سيد طنطاوى فىهذا الشأن ما نصه:"مع أن الرسول -ﷺ- شهد له خالقه -ﷻ- بأنه" ماينطق عن الهوى" إلا أنه سبحانه وتعالى كان بفضله وحكمته يوجه نبيه -ﷺ- التوجيه الحكيم ، ويرشده إلى ماهو خير وحق وعدل ، و يعاتبه عتابا رقيقا إذا ما فعل ما هو خلاف الأولى ؛ ولعل الحكمة فى ذلك أنه سبحانه وتعالى أراد أن يعلم الناس أن رسولهم -ﷺ- وهو أفضل الخلق إنما هو بشر مثلهم ، وهو فى حاجة دائمة إلى توجيه خالقه و إرشاده وتعليمه"(٣).

ويقول صاحب النبوة والأنبياء فى هذا الشأن ما نصه :"قد يجتهد النبى فيفعل ما هو خلاف الأفضل والأحسن فيعاتبه ربه .... وليس هذا من قبيل الذنب والمعصية ، وإنما هو من قبيل التنبيه إلى فعل الأكمل والأفضل ؛ وإن كان بالنسبة لمقام الأنبياء يعتبر فعلا خلاف الأفضل خطأ يستحق عليه المؤاخذة والعتاب على حد قول بعضهم :[حسنات الأبرار سيئات المقربين]"(٤).

---

(١) العقائد الإسلامية للسيد سابق صـ ١٨٢ ، الفتح للإعلام العربى ، القاهرة .

(٢) العقائد الإسلامية للسيد سابق صـ ١٩٣ .

(٣) القصة فى القرآن للدكتور محمد سيد طنطاوى ٤٢٠/٢ .نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٤) النبوة والأنبياء ، لمحمد على الصابونى صـ ٨٥ ، ٨٦ ، مكتبة الغزالى ، دمشق ، مؤسسة مناهل العرفان ، بيروت ، الثالثة ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م.

ويقاس علىذلك جميع الأنبياء والمرسلين ، إذ لو جاز صدور خلاف الأولى من أفضلهم وسيدهم فمن باب أولى لا يستبعد صدور مثل ذلك منهم ، يقول الشيخ/ محمد رشيد رضا:"اجتهاد الأنبياء فيما لا نص فيه من الوحى جائز وواقع وليسوا بمعصومين من الخطأ فيه ، وإنما العصمة المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحى ببيانه والعمل به ، فيستحيل على الرسول أن يكذب أو يخطىء فيما يبلغه عن ربه أو يخالفه بالعمل" ... وقد صرح علماء الأصول بجواز الخطأ فى الاجتهاد على الأنبياء -عليهم السلام- قالوا: ولكن لا يقرهم الله على ذلك ، بل يبين لهم الصواب فيه"[1].

وسيأتى الحديث عن ذلك بالتفصيل فى موضع آخر من هذا البحث إن شاء الله تعالى .

وبالجملة فالأنبياء عليهم السلام الذين أكرمهم الله بصفات سامية ومقامات رفيعة ، هم فى أعلى مراتب الصبر واليقين ، وما صدر عنهم من تعجل إنما هو فعل خلاف الأولى عاتبهم الله عليه تعليما وإرشادا إلى فعل ما هو الأفضل والأكمل واللائق بهم عليهم الصلاة والسلام .

وسوف يتناول البحث بمشيئة الله تعالى فى الصفحات التالية المواقف التى تعجل فيها الأنبياء والمرسلون من منظور القرآن مع ذكر البواعث المحمودة عليها والرد على من اتخذها ذريعة للطعن فى عصمتهم -صلوات الله وسلامه عليهم- .

(1) تفسير القرآن الحكيم ، الشهير بتفسير المنار ، لـ محمد رشيد رضا ١٠/٤٦٥ ، ٤٦٦ ، بتصرف ، دار المعرفة ، بيروت لبنان ، الثانية.

المبحث الأول

استعجال سيدنا زكريا عليه الصلاة والسلام للبشرى

قال تعالى على لسان نبيه زكريا :" **قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا {} وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا {} يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا**"[1].

كانت هذه كلمات الاستغاثة من سيدنا زكريا -عليه الصلاة والسلام- الذى كان كما وصفه المرحوم جاد المولى"مشتهب[2]الرأس ، واهن العظم ، معوج القناة ، لا يستطيع من المشى إلا بمقدار أن يذهب إلى الهيكل ، يتعهد شئونه ويلقى مواعيظه ثم يتنسك ويتأله"[3] ويعود فى أعقاب يومه يقضى ظلام الليل فى بيت يحوى زوجة وهى عجوز مثله قد اشتعل الرأس منها شيبات، ولا يستطيع من العمل إلا بمقدار أن يذهب إلى حانوته ساعة من نهار ، فإن أصاب بعض مال مسح دمعة البائس وقضى حاجة السائل ، ثم يرجع إلى داره فارغا إلا من فضل الله ، صامتا إلا عن ذكر الله"[4].

كان هذا حال سيدنا زكريا -عليه السلام- الذى لم يرزقه الله -ﷻ- ولدا تقر به عينه ويطمئن به فؤاده ، وهو مع ذلك كان" صابرا متحملا .... فذلك قضاء الله فما أقدر بالنبى من أن يتلقاه بالارتياح ؟ وتلك حكمته فمن أحق من زكريا بأن يقابلها بما تستحقه من الإذعان ؟ فلعل من وراء ذلك حكمة لا يعلمها ، ولعل الله يؤجل ذلك لغاية هو يجهلها ، وله الحمد على ما أنعم ومنا الصبر على ما أراد"[5] إلا أنه -ﷺ- لم يقطع رجاؤه من الله ، ولم تخب آماله، ولم ييأس فؤاده فهو -ﷻ- معين المحتاجين ، ومجيب دعاء المستغيثين ، وقف متضرعا إلى ربه بأن يرزقه ولدا صالحا قائلا"**رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين**"[6].

وزكريا -عليه السلام- أكرم على الله من أن يرد دعوته ، وأعز عليه من أن يخيب رجاءه ، وأحب إليه من أن يرده محتاجا ، بعد أن وقف على بابه سائلا ، فاستجاب -ﷻ- لندائه فنادته الملائكة"**يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا**"[7].

وفى تلك الحالة أدرك سيدنا زكريا ما يدرك المؤمل الذى وجد رجاءه، والسائل الذى وجد حاجته فتتوقت نفسه إلى سرعة هذا الأمر الذى لم يعين الله له زمنا ؛ مستعجلا السرور ؛ وإدخال البهجة فى فؤاد امرأة عجوز اشتعل الرأس بها شيبا ، وليس ذلك فقط بل ليتعجل شكر مولاه فقال وفؤاده يرفرف

---

(1) سورة مريم ، الآيات:٤:٦.
(2) الشهبة : البياض الذى غلب على السواد [لسان العرب ٤ / ٢٣٤٦ ، مادة شهب باب الشين] .
(3) تأله : تعبد [المصباح المنير ، فى غريب الشرح الكبير لـ أحمد بن محمد بن على الفيومى ١٩/١ ، كتاب الألف ، مادة اله ، المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان].
(4) قصص القرآن ، لـ محمد أحمد جاد المولى صـ ٢٠٢ ، المكتبة الأموية ، دمشق ، بيروت.
(5) قصص القرآن لجاد المولى صـ ٢٠٣ .
(6) سورة الأنبياء ، من الآية : ٨٩ .
(7) سورة مريم ، الآية : ٧ .

بهجة:"**رب اجعل لي آية**"[1] ، يقول الإمام الرازى فى هذا الشأن مانصه:"اعلم أن زكريا -عليه السلام - لفرط سروره بما بشر به ، وثقته بكرم ربه وإنعامه عليه ، أحب أن يجعل له علامة تدل على حصول العلوق ؛ وذلك لأن العلوق لا يظهر فى أول الأمر"[2] ويقول ابن عاشور:" أراد زكريا عليه السلام وقت الموعود به ؛ لأن البشارة لم تعين زمنا وقد يتأخر الموعود به لحكمة ، وفى هذا الاستعجال تعريض بطلب المبادرة به"[3].

ولقد احتلفت أقوال المفسرين فى الحكمة من سؤال الآية فذهب البعض إلى أن الحكمة من ذلك استعجال السرور ، وذهب آخرون إلى القول: ليتلقى تلك النعمة بالشكر حين حصولها ولا يؤخرها حتى يظهر الظهور المعتاد"[4].

ولا مانع من إرادة القولين معا وهو ما اختاره صاحب الجواهر إذ يقول عند تفسير قوله"رب اجعل لى آية"ما نصه:"أى علامة أعرف بها الحبل ؛ لأستقبله بالبشاشة والشكر، وتزول عنى مشقة الانتظار"[5] ، وهناك من زعم أن سيدنا زكريا إنما سأل الآية لتتحقق تلك البشارة من الله تعالى لا من الشيطان[6]. وهذا القول لا يليق بأنبياء الله ؛ لأنه يستحيل عليهم الشك فى قدرة الله -ﷻ- ، كما أنهم يستطيعون التمييز بين الوحى المنزل من عند الله وبين فعل الشيطان ، والله تعالى أعلم.

يقول محمد رشيد رضا:"زكريا أحب - بمقتضى الطبيعة البشرية - أن يتعين لديه الزمن الذى ينال به تلك المنحة الإلهية ، ليطمئن قلبه ويبشر أهله ، فسأل عن الكيفية ، ولما أجيب بما أجيب سأل ربه بأن يخصه بعبادة يتعجل بها شكره ، ويكون إتمامه إياها آية وعلامة على حصول المقصود"[7].

وخلاصة القول هو أن سيدنا زكريا -عليه السلام- عندما بشرته الملائكة بالولد لم يطق صبرا فطلب من الله علامة يستعجل بها السرور لنفسه ولأهل بيته ، وليتعجل بها شكر الله -ﷻ- والله تعالى أعلى وأعلم.

---

(1) وردت فى الذكر الحكيم مرتين الأولى فى سورة آل عمران ، من الآية :٤١ ، والثانية فى سورة مريم ، من الآية: ١٠ .
(2) مفاتيح الغيب المجلد الرابع ، ٨/ ٣٥ ، ٣٦ .
(3) التحرير والتنوير لـ الطاهر بن عاشور ، ١٦ / ٧٣ بتصرف ، الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.
(4) انظر روح المعانى ، ١٥٠/٣ ، تفسير المراغى ، ١٤٩/١ .
(5) الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ، للأستاذ الحكيم طنطاوى الجوهرى المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا ١٠٤/٢ ، ط الرابعة ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٤ م ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان.
(6) انظر روح المعانى ١٥٠/٣ نقلا عن السدى .
(7) تفسير المنار ، ٢٩٩/٣ .

المبحث الثاني
عجلة سيدنا يونس والآثار المترتبة عليها

بعث الله -ﷻ- سيدنا يونس -عليه الصلاة والسلام- إلى أهل نينوى[1]، وكانوا يعبدون الأصنام من دون الله ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، وترك ما سواه من الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، وكان سيدنا يونس -عليه السلام- ككل رسل الله تعالى متحمسا لدعوته قائما بها خير قيام مبلغ عن ربه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، قال تعالى:"**وإن يونس لمن المرسلين**"[2] فظل عليه السلام يدعوهم ويعظهم فلم يلق منهم إلا آذانا صما وقلوبا غلفا،،، قال ابن كثير:" فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم ، فلما طال عليه ذلك من أمرهم خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث .....فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم ، قذف الله فى قلوبهم التوبة والإنابة ، وندموا على ما كان منهم فلبسوا المسوح ، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ، ثم عجوا إلى الله -ﷻ- وصرخوا وتضرعوا إليه ، وتمسكنوا لديه ، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات ، وجأرت الدواب والأنعام والمواشى ، فرغت الإبل وفصلاتها، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحملانها ، وكانت ساعة عظيمة هائلة ، فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم الذى كان قد اتصل بهم بسببه ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم"[3].ولقد ذكرهم الله تعالى فى سورة يونس فقال :"**فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين**"[4].

وأما عن سيدنا يونس-عليه السلام - فبعد أن أنذرهم بحلول العذاب عليهم خرج من بينهم غاضبا منهم ؛ لإصرارهم وتماديهم فى الكفر والبغى ، ولقد عبر القرآن الكريم عن ذلك الخروج وصور عجلته وعدم صبره على قومه بقوله تعالى:"**وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدرعليه**"[5].وفى السياق القرآنى عطفت هذه الآية على ما سبقها من قصص الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ؛ لما فيها من العبر والمواعظ .قال ابن عاشور :"عطف الله سبحانه وتعالى هذه الآية على قوله :(وذا الكفل)لأجل ما فى قصته من الآيات فى الالتجاء إلى الله ؛ والندم على ما صدر منه من الجزع ، واستجابة الله تعالى له"[6].

---

(1) نينوى بكسر أوله وسكون ثانيه وفتح النون والواو بوزن طيطوى وهى قرية يونس بن متى عليه الصلاة والسلام بالموصل معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموي ٣٣٩/٥ ، دار الفكر بيروت.

(2) سورة الصافات من الآية :١٣٩ .

(3) البداية والنهاية لـ ابن كثير صـ ٢٣٢ ، ط . مكتبة المعارف ، بيروت ، لبنان .

(4) سورة يونس ، الآية: ٩٨ .

(5) سورة الأنبياء من الآية: ٨٧ .

(6) التحرير والتنوير لابن عاشور ، ١٣٠/١٧ ، بتصرف .

والمراد من النون فى قوله(وذا النون) الحوت ، وبذى النون سيدنا يونس -عليه السلام- وإنما أضيف له ؛ لأن الحوت ابتلعه فترة من الزمان دون أن يصيبه أذى ، وهذا أمر لم يحدث لأحد من البشر غيره -عليه الصلاة والسلام-"[1].

قال الإمام الرازى :" لا خلاف فى أن ذا النون هو يونس -عليه السلام- والنون السمكة ؛ وذلك لأن الاسم إذا دار بين أن يكون لقبا محضا وبين أن يكون مفيدا فحمله على المفيد أولى ، خصوصا إذا عرفت الفائدة التى يصلح لها هذا الوصف"[2].

وفى هذا التعبير لطيفة تعبر عن دقائق القرآن وأسراره فى هذه القصة ؛ وهى أنه تعالى عبر عن سيدنا يونس فى هذه الآية بذى النون وعنه فى سورة القلم بصاحب الحوت،،،

والسر فى ذلك " أن الإضافة لذى أفضل من الإضافة لصاحب ؛ لأ ن قولك: [ذو] يضاف إلى التابع وصاحب يضاف إلى المتبوع ، تقول: أبو هريرة صاحب النبى -ﷺ- ولا تقول: النبى صاحب أبى هريرة إلا على جهة ما ، أما ذو فإنك تقول: [ذو المال] و[ذو العرش] و[ذو العين] و[ذو الشهادتين] و[ذو السماكين] و[ذو اليدين] ، وهذا كله تفخيم للشىء وليس ذلك فى لفظة صاحب ..... فبين اللفظين تفاوت كبير فى حسن الإشارة إلى الحالتين ، وتنزيل الكلام فى الموضعين ، فإنه ذكر فى موضع الثناء عليه [ذا النون] ولم يقل صاحب النون ؛ لأن الإضافة بذى أشرف من صاحب ولفظ النون أشرف من الحوت ، لوجود هذا الاسم فى حروف الهجاء وأوائل السور"[3]. قال الإمام الألوسى :"قال سبحانه فى معرض مدح يونس -عليه السلام- (وذا النون) ، وعند النهى عن اتباعه قال(ولا تكن كصاحب الحوت) ؛ إذ النون لكونه جعل فاتحة سورة أفخم وأفضل من لفظ الحوت"[4]. فمدحه ؛ لأنه تضرع إلى الله ؛ واعترف بذنبه فاستجاب الله له ، وأما النهى عن اتباعه ؛ فلخروجه بغير إذن الله ؛ وعدم صبره على قومه وهو مقصودنا فى هذا البحث .... قال المرحوم جاد المولى :" سيدنا يونس لم يطق بقومه صبرا ، بل ضاق بهم ذرعا ، وقطع الرجاء فيهم قبل مطاولتهم ، ومد الحبل لهم ، فرحل عنهم مغاضبا لهم ، يائسا من إيمانهم ، نافضا الكف منهم ، أما دعاهم فلم يؤمنوا؟! وبصرهم فلم يتدبروا؟! وجادلهم فلم يستمعوا؟! وحسب أن الدعوة مقصورة على ما فعل وظن أنه يكفى لإبلاغها ماكان"[5] ولذلك جاء التعبير القرآنى مصورا حال سيدنا يونس عند خروجه" إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه" ولنا فى هذه المغاضبة وقفتان :

الوقفة الأولى : ممن كان مغاضبا؟ وفيها أقوال ذكرها الإمام ابن عطية فقال :"غاضب قومه حين طال عليه أمرهم ، وتعنتهم فذهب فارا بنفسه ، وقد كان الله تعالى أمره بملازمتهم ، والصبر على دعائه ،

---

[1] انظر النكت والعيون لـ أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردى ، ٤٦٥/٣ ، بتصرف دار الكتب العلمية بيروت لبنان الأولى ١٤١٢ - ١٩٩٢م ، راجعه وعلق عليه السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، والتسهيل لعلوم التنزيل لـ محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبى ٣١/٣ ، دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٣ه -١٩٨٣م ، الرابعة .

[2] مفاتيح الغيب المجلد الحادى عشر ١٨٤/٢٢ .

[3] البرهان فى علوم القرآن لـ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، ٢٧٩/٤ ، بتصرف ، ط . دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ،الثانية ،تحقيق/ أبو الفضل إبراهيم.

[4] روح المعانى ، ٣٧/٢٩ ، بتصرف .

[5] قصص القرآن لـ المرحوم محمد أحمد جاد المولى ،ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ط. المكتبة الأموية ، دمشق ، بيروت .

فكان ذنبه فى مخالفة هذا الأمر...وقيل إنما غاضب الملك الذى كان على قومه[1]وقيل إنما ذهب مغاضبا ربه واستفزه ابليس ، وروى فى ذلك أن يونس لما طال عليه أمر قومه طلب من الله تعالى عذابهم ، فقيل له : إن العذاب يجيئهم يوم كذا فأخبرهم يونس بذلك ، فقالوا : إن رحل عنا فالعذاب نازل وإن أقام بيننا لم نبال ، فلما كان سحر ذلك اليوم قام يونس فرحل ، فأيقنوا بالعذاب ، فخرجوا بأجمعهم إلى البراز ، وفرقوا بين صغائر البهائم وأمهاتها ، وتضرعوا وتابوا ، فرفع الله عنهم العذاب ، وبقى يونس فى موضعه الذى خرج إليه فنظر فلما عرف أنهم لم يعذبوا ساءه أن عدوه كاذب ، وقال: والله لا انصرفت إليهم أبدا ، وروى أنه كان فى دينهم قتل الكاذب فغضب حينئذ علىربه ، وخرج على وجهه حتى دخل سفينة البحر"[2]. وهذا القول الأخير لا يليق برسل الله ، إذ لا يليق بمؤمن أن يغاضب ربه ، فما بالك بنبى اصطفاه الله ورفع درجته من بين خلقه ، ولقد عقب الإمام ابن عطية على هذا القول عند ذكره فقال :"وفى هذا القول من الضعف والإخفاف به مما لا يتصف به نبى"[3].

والراجح أن المغاضبة كانت لقومه ؛ لطول مكثه بينهم ؛ ودعوته إياهم دون جدوى ، وإنما عاتبه الله ؛ لأن اللائق برسل الله مزيد الصبر والثبات على دعوته تعالى ، فالأولى به الانتظار حتى يأذن الله له ، قال ابن عاشور : "المغاضبة مفاعلة فهو غضبان من قومه إذ أبوا أن يؤمنوا ، وهم غاضبون من دعوته فالمغاضبة من الجانبين"[4].

الوقفة الثانية : احتج الطاعنون فى عصمة الأنبياء بهذه الآية ، وشبهتهم فى ذلك أن يونس –عليه السلام– ذهب مغاضبا لربه وهذا من أعظم الذنوب ، وعلى تقدير أن هذه المغاضبة لم تكن مع الله بل كانت مع ذلك الملك أو مع القوم فهو أيضا كان محظورا ؛ لأن الله تعالى قال [**فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت**"[5]وذلك يقتضى أن ذلك الفعل من يونس كان محظورا وهذه الشبه أوردها الإمام الرازى فى مفاتيح الغيب[6]. ويرد على ذلك بما يلى :

"إنه ليس فى الآية من غاضبه ، ولكننا نقطع على أنه لا يجوز على نبى الله أن يغاضب ربه ؛ لأن ذلك صفة من يجهل كون الله مالكا للأمر والنهى ، والجاهل بالله لا يكون مؤمنا فضلا عن أن يكون

---

(1) روى عطية العوفى عن ابن عباس أنه كان فى بنى اسرائيل ملك وكان مع ذلك نبيا يوحى إليه ، وكان قد غزا بنى اسرائيل قوم فدعا الملك يونس ، وأرسله إلى أولئك القوم فقال يونس أمرك الله بهذا أو سمانى لك ؟ فقال : لا ولكن أرسلك فغضب وخرج من بينهم متوجها إلى البحر [تسرين إبراهيم على ضمرة تفسير القرآن لـ أبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني ،٤٠٣/٣ ، دار الوطن الرياض ،السعودية ،١٤١٨ه -١٩٩٧م ، المحقق ياسر بن إبراهيم ، وغنيم بن عباس بن غنيم ، وينظر مفاتيح الغيب المجلد الحادي عشر ١٨٤/٢٢] .

(2) المحرر الوجيزفي تفسير القرآن العزيز لـ أبي محمد بن غالب بن عطية الأندلسى ، ٩٦/٤-٩٧ ، دار الكتب العلمية لبنان ،١٤١٣ه -١٩٩٣ م ، الأولى ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، وينظر تفسير السمرقندى المسمى بحر العلوم لـ أبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي ٣٧٧/٢ ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، تحقيق علي محمد معوض ، عادل أحمد عبد الموجود ، الدكتور زكريا عبد المجيد النوتي.

(3) المحرر الوجيز ٩٤/٤ .

(4) التحرير والتنوير ١٧/ ١٣٠-١٣١ بتصرف .

(5) سورة القلم من الآية ٤٨ .

(6) مفاتيح الغيب المجلد الحادي عشر ١٨٥/٢٢ .

نبيا .... فثبت أن المغاضبة لا يجوز صرفها لله ، وإذا ثبت ذلك وجب أن يكون المراد أنه خرج مغاضبا لغير الله ، وهو إما قومه أو الملك أو هما جميعا"[١].

"وأما قولهم أن مغاضبة قومه كان محظورا لأن الله تعالى قال لنبيه" فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت" فنجيب: أن المغاضبة إنما كانت على قومه ومعهم ، فهم أغضبوه حيث أصروا على الكفر والعناد ، وهو أغضبهم حيث فارقهم فخافوا حلول العذاب بهم عندها وهي ليست بمعصية ؛ إما" لأن الغضب لم يكن منهيا عنه قبل ذلك فظن أن ذلك جائز من حيث أنه لم يفعله إلا غضبا لله تعالى وأنفة لدينه"[٢] ، قال بعض المفسرين:"إن يونس برم بقومه لطول ما ذكرهم ، فلم يذكروا وأقاموا على كفرهم فراغمهم ، وظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضبا لله وأنفة لدينه وبغضا للكفر وأهله[٣]. فخروجه عليه السلام من باب الخطأ في الاجتهاد وهو لا يقدح في عصمته -عليه السلام- ولا في عصمة غيره من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وإما لأن خروج يونس -عليه الصلاة والسلام -مغاضبا لقومه من باب مخالفة الأولى إذ الأولى به المصابرة والانتظار حتى يأذن الله له بالخروج ؛ قال الإمام الرازي:" لهذا قال تعالى [ولا تكن كصاحب الحوت] كأن الله تعالى أراد لمحمد -ﷺ- أفضل المنازل وأعلاها"[٤] أي اصبر ولا تستعجل النصرة على أعدائك ولا تكن في الضيق والعجلة والضجر كيونس عليه السلام الذي خرج فارا من قومه بغير إذن ربه. قال محمد علي الصابوني :"معاتبة يونس ؛ كانت لعدم صبره ؛ ولخروجه من بين قومه بغير إذن من الله تعالى ؛ ولهذا أمر الله تعالى رسوله الكريم أن يصبر على تكذيب المشركين ، وألا يكون ضيق الصدر قليل الصبر كما كان شأن يونس عليه السلام مع قومه"[٥].

وما أجمل هذا القول من العالم الفاضل الدكتور / عبد الحليم محمود ، والذي يوضح فيه ما تعنيه(فاصبر لحكم ربك) إذ يقول :"أما يونس -عليه السلام- فإنه لما ضاق بقومه ذرعا ، فارقهم مغاضبا منذرا بالعذاب ، ولم تكن هذه المفارقة عن استئذان من الله أو عن أمر منه ، إنما ظن هو أن هذا في شريعة الله أوسع من أن يحتاج إلى إذن وأنه غير مضيق عليه من قبل الله في المكث أو في المفارقة، أو أنه في مجال مباح،وغرب عن ذهنه في ساعة مغاضبته لقومه أن المفارقة بدون استئذان إذا جازت بالنسبة للأفراد العاديين فإنها لا تجوز بالنسبة لمن يصطفيهم الله للعبودية الخالصة ، ومن يجتبيهم مرسلين من قبله ، إن هؤلاء لا يتحركون إلا به ،ولا يسكنون إلا عن أمره ،وهم في كل ما يأتون به وما يدعون قد ألقوا بمقاليد أمورهم بين يديه يصرفهم حسبما يشاء ، ولعل ذلك هو ما تعنيه الكلمات القرآنية الكريمة في قوله(فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت)[٦]. "فلعله عليه السلام لو كان قد أطال مدته واستمر

---

[١] مفاتيح الغيب المجلد الحادي عشر ١٨٥/٢٢ ، ١٨٦ بتصرف .
[٢] مفاتيح الغيب المجلد الحادي عشر ١٨٦/٢٢ .
[٣] الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لـ أبي القاسم جار الله بن محمود بن عمر الزمخشري ١٣٢/٣ ، دار إحياء التراث بيروت ،تحقيق عبد الرزاق المهدي.
[٤] مفاتيح الغيب ، المجلد الحادي عشر ١٨٦/٢٢ .
[٥] النبوة والأنبياء لـ محمد علي الصابوني ٨٤-٨٥ .
[٦] في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل د/عبد الحليم محمود صـ٢٥ ، طـ أخبار اليوم.

فى نشر دعوته لوجد فيهم من يؤمن ويستجيب ، ولوجد فيهم من يستغفر وينيب ، ولكنه رحل ليلقى من الله قضاء ويتلقى جزاء"[1].

ويستخلص من جميع ما سبق : أن مغاضبته لقومه ليست بمعصية وإنما هى خطأ فى اجتهاده عليه السلام ومخالفة الأولى والأفضل واللائق برسل الله عليهم السلام .

وهذا كله على تقدير صحة القول القائل بأن مغاضبته عليه السلام كانت لقومه وهو القول الذى أميل إليه واللائق به- عليه السلام- أما على تقدير من ذهب إلى أن المغاضبة لربه فلا يقدح هذا أيضا فى عصمته عليه السلام ، إذ لا يختلف الغرض من المغاضبة ، وهذا ما أوضحه النحاس فى كتابه (إعراب القرآن) حيث قال معقبا على القول القائل بأن المغاضبة لربه:" "وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة وهذا قول صحيح والمعنى مغاضبا من أجل ربه وكما تقول غضبت لك أى من أجلك والمؤمن يغضب لله -ﷻ- إذا عصى"[2].

إذا كلا القولين لا يقدح فى عصمته -ﷺ- إذ الغرض من المغاضبة هو الغيرة على دين الله -ﷻ- والرغبة الشديدة فى إعلاء كلمة الله -ﷻ- لتكون هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى ، والله تعالى أعلم ،،،،،

فلهذه البواعث المحمودة تعجل يونس فخرج بغير إذن ربه -ﷻ- ظنا منه أن الله لن يؤاخذه على هذا الخروج ، وهو ما عبر عنه القرآن بقوله" فظن أن لن نقدر عليه""أى فظن أن لن نعاقبه بالتضييق عليه من قولهم قدرت على فلان إذا ضيقت عليه كما قال جل ثناؤه :" **ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله**"[3]، و"عن ابن عباس أنه قال فى معنى الآية :" أى ظن أن لن يؤاخذه بالعذاب الذى أصابه وهوما نقله عنه ابن جرير الطبرى واختاره"[4]

فتفسير نقدر بالتضييق هو الأقرب للصواب واللائق بمقام النبوة ، وعلى هذا المعنى حمل الحديث الذى رواه مسلم فى كتاب التوبة - باب سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه - عن أبى هريرة -ﷺ- أن رسول الله -ﷺ- قال :" قال رجل لم يعمل حسنة قط لأهله إذا مات فحرقوه ثم اذروا نصفه فى البر ونصفه فى البحر، فوالله لئن قدر عليه الله ليعذبه عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين ، فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم به فأمر الله البر فجمع ما فيه وأمر البحر فجمع ما فيه ثم قال : لم فعلت هذا ؟ قال من خشيتك يارب وأنت أعلم فغفر الله له"[5].

---

(1) قصص القرآن لـ المرحوم محمد أحمد جاد المولى صـ ٢٠٠.
(2) إعراب القرآن الكريم لـ النحاس ٧٧/٣ .
(3) سورة الطلاق من الآية: ٧ .
(4) جامع البيان في تفسير القرآن لإبن جرير الطبري ١٧ / ٧٨ ، دار الفكر بيروت ١٤٠٥ه ،وينظر مفاتيح الغيب المجلد الحادي عشر ١٨٦/٢٢ .
(5) أخرجه مسلم ، كتاب التوبة ، باب سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ، ٢١٠٩/٤ ، رقم الحديث (٢٧٥٦) .

فقدر هنا بمعنى ضيق إذ لو كان الرجل شاكا فى قدرة الله ما غفر له ، وقريب من هذا ماقيل إن المعنى ، فظن أن لن نقضى عليه بشدة ، فتفسر القدرة بالقضاء[١] قال الزجاج :" نقدر بمعنى نقدر ، يقال قدر الله الشيء قدرا وقدره تقديرا فالقدر بمعنى التقدير"[٣].

فالتضييق الذى أصابه –عليه السلام– وقدره الله له هو التقام الحوت له ولبثه فى بطنه فترة من الزمان عقوبة له على تعجله بالخروج دون إذن له ودون مصابرة وتثبت "ويجوز أن يكون هذا القول من باب التمثيل ، أى فكانت حالته ممثلة بحال من ظن أن لن نقدر عليه فى خروجه من قومه من دون انتظار لأمر الله تعالى[٤]. وكل هذه التأويلات خروج به عن ظاهر الآية الذى يوهم شك سيدنا يونس فى قدرة الله ، وهذا افتراء لايجوز نسبته إلى الصالحين من عباد الله فضلا عن الأنبياء والرسل ، ولذلك لاتحمل الآية على ظاهرها ؛ لأن الأنبياء معصومون من ذلك . يقول أحمد بهجت:" نريد الآن أن ننظر فيما يسميه العلماء ذنب يونس ، هل ارتكب يونس ذنبا بالمعنى الحقيقى للذنب ؟ وهل يذنب الأنبياء ؟ والجواب : أن الأنبياء معصومون ...غير أن هذه العصمة لا تعنى أنهم لا يرتكبون أشياء هى عند الله أمور تستوجب العتاب ، المسألة نسبية إذن ، يقول العارفون بالله : إن حسنات الأبرار سيئات المقربين وهذا صحيح .. فلننظر فى فرار يونس من قريته الجاحدة المعاندة ، لو صدر هذا التصرف من إنسان صالح غير يونس لكان ذلك فيه حسنة أثيب عليها .. فهو كان قد فر بدينه من قوم مجرمين [٥] ، ولكن يونس نبى الله أرسله الله إليهم .. والمفروض أن يبلغ عن الله ولا يعبأ بنهاية التبليغ أو ينتظر نتائج الدعوة ، ليس عليه إلا الإبلاغ .. خروجه من القرية إذن فى ميزان الأنبياء أمر يستوجب تعليم الله تعالى له وعقابه ، إن الله يلقن يونس درسا فى الدعوة إليه .. ليدعو النبى إلى الله فقط .. إنما أرسله ليدعو فحسب .. هذه حدود مهمته وليس عليه أن يتجاوز ببصره أو بقلبه ثم يحزن لأن قومه لا يؤمنون .. إن لوطا مكث فى قومه يدعوهم سنوات عديدة فلم يؤمن فيهم أحد .. ورغم ذلك لم يخرج فرارا بنفسه ودينه وأهله من قريته ، ظل يدعوهم حتى جاءه أمر الله وأرسل إليه ملائكته بإذن الخروج .. ساعتها خرج لوط ، ولو خرج قبلها لعوقب مثل يونس .. ولقد خرج يونس بغير إذن ؛ فانظر ما وقع لقومه ؟ لقد آمنوا به بعد خروجه ، قال تعالى:" **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها**...[٧]" وهكذا آمنت قرية يونس ولو أنه مث فيهم لأدرك ذلك وعرفه واطمأن قلبه وذهب غضبه غير أنه كان متسرعا ، وليس تسرعه هذا سوى فيض فى رغبته أن

---

[١] مفاتيح الغيب المجلد الحادي عشر ١٨٦/٢٢ بتصرف .
[٣] معانى القرآن واعرابه للزجاج ٤٠٢/٣ ، ط. عالم الكتب ، بيروت ، لبنان .
[٤] مفاتيح الغيب المجلد الحادي عشر ٢٢ / ١٨٦ بتصرف .
[٥] يصدق على ذلك قول الله تعالى فى سورة النساء"إن الذين توفاهم الملآئكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا" فقد نزلت فى قوم من أهل مكة لم يهاجروا وبقوا مع الكفرة يعذبون ويستهزىء بهم (ينظر تفسير البيضاوى المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ٢٤٢/٢ ، دار الفكر بيروت).
[٧] سورة يونس ، من الآية: ٩٨.

يؤمن الناس ، وإنما اندفع إلى الخروج كراهية لهم لعدم إيمانهم فعاقبه الله ، وعلمه أن على النبى أن يدعو للإسلام فحسب .. ليس عليك أن يؤمن الناس .. ليس عليك هداهم[١].

الآثار المترتبة على عجلته عليه السلام:

خرج عليه السلام من القرية إلى ساحل البحر فوجد سفينة فركب ، ولقد وصف الله حاله فى سورة الصافات بقوله :" **إذ أبق إلى الفلك المشحون {} فساهم فكان من المدحضين**"[٢].

وأبق بمعنى هرب ، قال ابن منظور :" الإباق هرب العبيد وذهابهم من غير خوف ولا كد عمل"[٣] وقال النحاس:" أبق تباعد ومنه غلام آبق"[٤] وقال الإمام أبو السعود :" أصله الهروب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه حسن إطلاقه عليه"[٥]. والمشحون بمعنى المملوء[٦] والمساهمة أى المقارعة ، قال ابن منظور :" السهم القدح الذى يقارع به والجمع سهام واستهم الرجلان تقارعا ، وساهم القوم فسهمهم سهما قارعهم فقرعهم"[٧]"والمدحضين المغلوبين ، يقال دحضت الحجة دحضا ، دحضت ودحض الرجل زلق"[٨]،والمعنى أن يونس -عليه الصلاة والسلام -حين ترك قومه بغير إذن مولاه ، ركب سفينة مملوءة بالأمتعة والراكبين ، فجرت بهم فوق الماء ، إلا أنهم خافوا الغرق ، فاقترعوا فيما بينهم على إلقاء بعضهم فى البحر ؛ تخفيفا على السفينة فوقعت القرعة فيما وقعت عليه -عليه السلام-فألقى فى البحر ، فالتقمه حوت كان بانتظاره جزاء له على فعله الذى لامه الله تعالى عليه ، وهو خروجه بغير إذنه ، وتعجله فى الخروج دون مصابرة ، ولقد حكى لنا صاحب البداية والنهاية ماجرى حينئذ فقال :" لما ذهب عليه السلام مغاضبا بسبب قومه ركب سفينة فى البحر ، فلجت بهم واضطربت ، وماجت بهم ، وتقلت بما فيها ، وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون ، قالوا: فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا ، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتحفظوا منه ، فلما اقترعوا ، وقعت القرعة على نبى الله يونس ، فلم يسمحوا به فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضا ، فشمر ليخلع ثيابه ، ويلقى بنفسه ، فأبوا عليه ذلك ، ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضا ؛ لما يريده الله تعالى به من الأمر العظيم ، قال الله تعالى :" وإن يونس لمن المرسلين .... الآيات" وذلك إنما لما وقعت عليه القرعة ألقى فى البحر ، وبعث الله حوتا من البحر الأخضر فالتقمه ، وأمره الله تعالى ألا يأكل له لحما ، ولا يهشم له عظما ، فليس لك برزق ، فأخذه فطاف به فى البحار كلها"[٩] فجازاه الله -ﷻ-على عجلته وأراه ضيقا هو أشد عليه من صبره وانتظاره بين قومه يدعوهم إلى الله -ﷻ- لعل الله أن يهديهم ويشرح صدورهم للإسلام ،

---

(١) أنبياء الله لأحمد بهجت ، صـ ١٨١ ، ١٨٢ ، دار الريان للتراث ، دار الشروق ، ط. الرابعة عشر ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧ م .
(٢) سورة الصافات الآيتان: ١٤٠ ، ١٤١ .
(٣) لسان العرب ٩/١ ، مادة أبق ، باب الألف.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤٣٩/٣ .
(٥) تفسير أبى السعود المسمى بـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لـ أبي السعود محمد بن محمد العمارى ،٧/ ٢٠٥ ،دار إحياء التراث العربي بيروت.
(٦) لسان العرب ٤ / ٢٢٠٩ ، باب الشين .
(٧)لسان العرب ٢١٣٥/٣ ، باب السين .
(٨) المصباح المنير ١٩٠/١ كتاب الدال .
(٩) البداية والنهاية ، ٢٣٢/١ ، ٢٣٣ .

إذ الصبر دائما ما يعقبه الفرج والخير، أما العجلة فيعقبها دائما الندامة ، وقد كان ،، قال المرحوم محمد جاد المولى :" لما وقعت على سيدنا يونس القرعة أكثر من مرة علم أن وراء ذلك سرا وأن لله فى ذلك تدبيرا ، وأدرك خطيئته ، وما كان من تركه لقومه قبل أن يؤذن له فى الهجرة ، أو يستخير الله فى الرحيل ، فألقى بنفسه فى اليم ، وأسلم نفسه للأمواج يتقلب بين طياتها ويتخبط فى ظلماتها ، وأوحى الله إلى الحوت أن يبتلعه وأن يطويه فى بطنه ، ولكن على أن لا يأكل لحمه ولا يهشم عظمه ، فما هو إلا نبى كريم تأول فلم يصب وعجل ثم ندم ، وأنه وديعة عنده يؤديها عندما يأذن الله له"[١].

ولقد أخبر الله عن حاله حين التقمه الحوت بقوله :" فالتقمه الحوت وهو مليم" أى أتى ما يلام عليه"[٢] وقيل" المليم المعيب ، يقال ألام الرجل إذا عمل شيئا فصار معيبا بذلك العمل"[٣].

وهذا التعبير لا يعنى أن لومه لذنب صدر منه ، وإنما هذا اللوم ترتب على فعله خلاف الأولى ، إذ الأولى التصبر والجلد لا المغاضبة والخروج بغير إذن ربه ، فلعلو شأنه ورفعة مكانته اعتبر فعله خلاف الأولى ذنبا يستحق اللوم عليه ، قال الإمام الرازى :" إن الملامة كانت بسبب ترك الأفضل"[٤] وقبع يونس فى بطن الحوت ، والحوت يشق الأمواج ، ويهوى إلى الأعماق فى ظلمات متضاعفة ، فضاق صدره واعتلج همه ، وفزع إلى الله غياث الملهوف ، وملجأ المكروب ، وواسع الرحمة ، وقابل التوبة ، وغافر الذنب"[٥]،**"فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**" وللمفسرين أقوال فى الظلمات " قيل : هى ثلاث: ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الحوت ، وقيل إذا كان النداء فى الليل فهناك ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ، فإن كان فى النهار أضيف إليه ظلمة أمعاء الحوت ، أو أن حوتا ابتلع الحوت الذى هو فى بطنه ، أو لأن الحوت إذا عظم غوصه فى قعر البحر كان ما فى فوقه من البحر ظلمة فى ظلمة ، وقيل هى ظلمة واحدة وجمع الظلمات مبالغة فى شدة الظلمات كقوله تعالى :" **يخرجهم من الظلمات إلى النور**[٦]"[٧].

وزاد الإمام الماوردى:" ظلمة الخطيئة وظلمة الشدة وظلمة الوحدة"[٨] ولا مانع من إرادة كل هذه الظلمات فسيدنا يونس –عليه الصلاة والسلام– كان فى ظلمات معنوية ومادية ، فهو فى بطن الحوت ، وهذه ظلمة ، وفى البحر ، وهذه ظلمة ، وفى وحدة ، وهذه ظلمة ، وهو قد أخطأ ، وهذه ظلمة ، وفى شدة ، وهذه ظلمة ، فهى ظلمات لا نهاية لها ، قال الإمام القشيرى:" الظلمات ما التبس عليه من وقته واستبهم عليه من حاله"[٩].

---

[١] قصص القرآن ص٢٠١ بتصرف يسير .
[٢] مفاتيح الغيب المجلد الثالث عشر، ٢٦ / ١٤٤ .
[٣] فتح القدير ٤ / ٤١٠ .
[٤] مفاتيح الغيب المجلد الثاني عشر ، ٢٢ / ١٨٧ .
[٥] قصص القرآن لمحمد أحمد جاد المولى ٢٠١ .
[٦] سورة البقرة من الآية:٢٥٧.
[٧] ينظر المحرر الوجيز ٩٧/٤ ، وتفسير السمرقندى ٣٧٧/٢ ، مفاتيح الغيب المجلد الثاني عشر ١٨٧/٢٢ ، التحرير والتنوير ١٣٣/١٧ .
[٨] النكت والعيون ٤٦٦/٣ .
[٩] لطائف الإشارات ٥٢٠/٢ .

ولأنه ندم على ما فرط منه من تقصيره وعجلته نسب الظلم لنفسه حيث وضع العجلة والضجر والخروج موضع الصبر والثبات والانتظار فعد ذلك ظلما ؛ لأنه وضع الأمور فى غير موضعها اللائق بها ، وهو ما أشار إليه بقوله تعالى :" سبحانك إنى كنت من الظالمين".

قال الإمام الرازى :" سماه ظلما ؛ لتركه الأفضل مع القدرة علىتحصيل الأفضل ، وكان ذلك ظلما"[1] "فنداؤه -عليه السلام- ربه ، توبة صدرت منه عن تقصيره أو عجلته أو خطأ اجتهاده ؛ ولذلك بالغ فى اعترافه بظلم نفسه ؛ حيث أسند إليه فعل الكون الدال على رسوخ الوصف وجعل الخبر أنه واحد من فريق الظالمين ، وهو أدل على أرسخية الوصف"[2] قال الإمام الماوردى :" وصف الله بقوله" لا إله إلا أنت" بكمال الربوبية ، ووصف نفسه قائلا :" إنى كنت من الظالمين" بضعف البشرية والقصور فى أداء حق الربوبية"[3].

وهكذا ندم يونس -عليه السلام- على ما فرط منه فاستجاب الله -ﷻ-له إذ رحمته تعالى سبقت غضبه لا سيما مع رسوله المصطفى ، فهو -ﷻ-لم يرد به العقاب بل أراد به التأديب ؛ ليعلمه الصبر على الدعوة ؛ لذلك استجاب لدعائه ونجاه مما هو فيه" فاستجبنا له فنجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين" بل لقد جعل دعاؤه هذا إذا دعا به مسلم استجاب له الله دعوته ، فقد روى أن النبى -ﷺ- قال :" دعوة ذى النون وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له"[4].

كان هذا هو الموقف الذى تعجل فيه سيدنا يونس -عليه الصلاة والسلام -والضرر الذى لحقه بتعجله وخروجه بغير إذن ربه .

ونلمح من هذا الموقف لمحات منها :

"أن سيدنا يونس عليه السلام لم يصبر على تكاليف الرسالة ؛ فضاق صدرا بالقوم ؛ وألقى عبء الدعوة ، وذهب ضيق الصدر حرج النفس ، فأوقعه الله فى الضيق الذى تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين ، ولولا أنه تاب إلى ربه ، واعترف بظلم نفسه لما خرج من هذا الضيق ، فينبغى على أصحاب الدعوات أن يتحملوا تكاليف الدعوة ، وأن يصبروا على التكذيب بها ، ولا بد أن يثابروا ويكرروا الدعوة ، فإذا لم تصل إلى القلوب المرة المائة فقد تصل المرة الواحدة بعد المائة وقد تصل بعد الألف ، ولو صبروا هذه المرة وحاولوا ولم يقنطوا، لتفتحت أمامهم الأبواب المغلقة ، فاستجابة النفوس للدعوات ليست سهلة ، فهناك ركام من الباطل والتقاليد والعادات والأوضاع التى نشأوا عليها ، فلا بد من الصبر لإزالة هذه العواقب ، إذ لابد من إحياء القلوب بكل وسيلة ولمس المركز الحساس ، وعندما يلمسها قد يتحول

---

[1] مفاتيح الغيب المجلد الحادي عشر ١٨٧/٢٢ .

[2] التحرير والتنوير ١٣٢/١٧ بتصرف .

[3] النكت والعيون ٤٦٧/٣ .

[4] أخرجه الترمذى فى كتاب الدعوات باب (٨) ٥٢٩/٥ ، رقم الحديث (٣٥٠٥) ، وقال أبو عيسى روى غير واحد هذا الحديث عن يونس بن أبى إسحاق عن إبراهيم بن محمد بن سعد ولم ينكر فيه عن أبيه ، كما أخرجه الحاكم فى مستدركه كتاب الدعاء والذكر ٥٠٥/١ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، كما أخرجه فى كتاب التفسير ، تفسير سورة الأنبياء ، ٣٨٢/٢ ، ٣٨٣ ، ط.دار الفكر ، بيروت ١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨ م .

الكائن البشرى تحويلا تاما فى لحظة ، فيتستجيب بأيسر مجهود وقد أعيا من قبل على كل الجهود"[1].....

يقول محمود زهران معقبا على قصة يونس :

" ماهكذا تكون الدعوات ولا بهذا العنف يساس الناس ، ولا بهذه الطريقة السريعة يتخلى الإنسان عن دينه ومبدئه والدعوة ..... الدعوة الراسخة تقوم بالتربية والتقويم والإقناع وببسط جناح اللين والرحمة ، وماهكذا أخذ نوح قومه فقد مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما وما آمنوا وما اهتدوا ، بل لم يؤمن ولده بدين أبيه ؛ شرط الدعوة وواجب الداعى أن يتسع صدره للمعارضة ، وألا يغضب إذا نفر منه الناس ، ومن دينه الجديد ، وإذا حنوا إلى ما سرى فى دمائهم ، ومما ورثوه عن الأجداد ، ثم تأليف النفوس وتسريب الدعوة إلى القلوب واستمالة العواطف ... لقد فاتك كل هذا أيها النبى – يونس – فقلت وأنذرت وهددت ووعدت وتعجلت ونفضت يدك وسحبت نفسك ، وتخليت عن متابعة رسالتك ، وهجرت القوم ، وتركتهم حائرين ، لا يجتمع نجاح فى دعوة وفظاظة وغلظة ، ولا تتأتى استمالة قلوب لدين إذا كانت سياط العذاب مسلطة فوق الرءوس ، بل العنجهية فى الدعوة سبب الانفضاض عنها ، والنفرة منها ومقاومتها ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك"[2].

ومهما يكن من أمر فإنى لا أوافق البتة على هذه المقولة التى تقدح فى سيدنا يونس ، فتخاطبه كما لو تخاطب أى إنسان ، والمولى –ﷻ– نهانا عن ذلك أشد النهى وحذرنا أشد التحذير ، فقال عز من قائل:"**يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم {} يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون(3)**". وقال أيضا:" **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم(4)**".

فما هكذا –سيدى الأستاذ– يكون الخطاب مع الأنبياء ، فما فعله سيدنا يونس –عليه السلام – لهو بالأمر الهين كما وضح البحث ذلك ، واستدل عليه بأقوال أئمة المفسرين.

ويفهم من هذا أن الداعى مأمور بالصبر على الدعوة ، فلا يضق صدره بما يقولون ، يقول الشيخ/ سيد الكيلانى:"إن الدعوة هى الأصل لا شخص الداعية ، فليضق صدره ، ولكن ليكظم ، ويمض خير له ، فلا يضق صدره بما يقولون ، إن الداعية أداة فى يد القدرة والله –سبحانه وتعالى– أرعى لدعوته وأحفظ ، فليؤد هو واجبه فى كل ظرف ، وفى كل جو والبقية على الله والهدى هدى الله ، إن فى قصة ذى النون لدرسا لأصحاب الدعوات ينبغى أن يتأملوه ، وإن فى رجعة ذى النون إلى ربه واعترافه

---

(1) فى ظلال القرآن سيد قطب المجلد الرابع ٢٣٩٣/١٧ ، ٢٣٩٤ ، بتصرف .

(2) قصص القرآن بقلم محمود زهران صـ ١٨٦ ، ١٨٧ ، الناشر مكتبة غريب .

(3) سورة الحجرات ، الآيات : ١ ، ٢ .

(4) سورة النور ، الآية : ٦٣.

بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغى أن يتدبروها ، وإن فى رحمة الله لذى النون واستجابته لدعائه المنيب فى الظلمات لبشرى للمؤمنين" وكذلك ننجى المؤمنين"[1].

رحم الله سيدنا يونس ، فما غضب إلا لله وما كان ذنبه إلا استعجال نصرة دين الله ، وهذا لا يقدح فيه ولا يقلل من شأنه ، وحسبه فى ذلك قول رسول الله-ﷺ-"من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب[2]"

[1] فى موكب النبيين دراسة تحليلية هادفة لسير الأنبياء السابقين فى ضوء الآيات القرآنية والثابت من الأحاديث النبوية لسيد أحمد الكيلانى ، ٣٠٢/١ .

[2] أخرجه البخارى ، كتاب التفسير ، باب وإن يونس لمن المرسلين ١٥١٦/٣ رقم الحديث (٤٨٠٥) عن أبي هريرة.

obeikandi.com

البحث الثالث

تعجل سيدنا موسى عليه السلام

لقد كانت السمة الغالبة على شخصية سيدنا موسى –عليه السلام – سرعة الإنفعال والغضب إذا انتهكت حرمات الله –ﷻ–ولقد تجلت هذه السمة فى مواقف تحدث عنها القرآن الكريم وهى:

أولا : قتله القبطى

قال تعالى:"**إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين**"[١].

"تمادى فرعون فى غيه وعلا فى الأرض ، وأنزل الخسف بطائفة من رعاياه ، هم بنو اسرائيل ، إذ عاشوا فى ظلاله عيشة البلاء ، واصطبروا على اللأواء ، وبينما هم يضطربون ويرزحون فى نكد من العيش وسوء الحال ، إذ تقدم كاهن من فرعون وقال له : يولد مولود فى بنى اسرائيل يذهب ملكك على يديه ، فثارت ثورته ، وأمعن فى غيه ، فذبح أبناءهم ، واستبقى نساءهم ، ولكن قدرة الله تسامت أن يقف أمامها تدبيرخائب ؛ فقدر فى قديم أزله لهؤلاء المستضعفين أن يرثوا ملك هذا الطاغية الجبار على يد طفل يربى فى بيته ، ولكنه كالورد ينبت من ثنايا الشوك ، وكالفجر يدرح من مهد الظلام"[٢].

تربى موسى –عليه السلام– فى بيت الطاغية ، ولما بلغ مبلغ الرجال كما وصفه القرآن الكريم"**ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين**"[٣].

اتجهت إليه أنظار المستضعفين المغلوبين ؛ ليحميهم مما أثقل كاهلهم من الظلم والآلام ، وكان موسى قد عاهد نفسه على أن يكون ظهيرا وعونا لهؤلاء المظلومين المدحورين ، وبينما هو كذلك إذ يتوجه نحو العاصمة الفرعونية فإذا برجلين يقتتلان ؛ أحدهما من المقهورين ، والثانى من أصحاب القوة والسلطان أنصار فرعون ، فاستغاث به مظاهره على أن يحول بينه وبين اعتداء الفرعونى ، فانفعل موسى انفعالا شديدا من هذا الظالم المعتدى ، ومن غير أن يتريث وينتظر حتى يفصل بين المتنازعين ، ويحكم بينهما بالموعظة والنصيحة إذ هو اللائق به ، دفع المعتدى دفعة شديدة أدت إلى موته ، ولقد قص لنا القرآن الكريم هذه الواقعة ، وصور لنا توبة سيدنا موسى –عليه السلام –وندمه على فعله خلاف الأولى ، إذ الأولى بأمثاله إذا بغى أحدهما على الآخر حكم بينهما وكف الباغى منهما بالوعظ والارشاد .

قال تعالى حكاية عن سيدنا موسى :"**ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين**"[٤]

---

[١] سورة القصص ، الآية: ٤ .
[٢] قصص القرآن لمحمد أحمد جاد المولى صـ ١١١ .
[٣] سورة القصص ، الآية: ١٤ .
[٤] سورة القصص ، الآية : ١٥ .

أقوال المفسرين فى شرح الآيات :

قوله تعالى :" **ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها** " فى هذه الآية عدة نقاط لا بد من معرفتها... أولا : المراد بالمدينة: ذكر المفسرون عدة أقول فى المراد بالمدينة منها:"أنها مدينة تسمى منف[1]وقيل مصر ، وقيل عين شمس ، وقيل قرية على فرسخين من مصر ، وقيل غير ذلك[2].

ثانيا : المراد بقوله"على حين غفلة من أهلها" قال الراغب: "الغفلة سهو قد يعترى الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ ، يقال غفل فهو غافل"[3] " وهو هنا ، وقت القائلة واشتغال الناس بالقيلولة ، وقيل مابين المغرب والعشاء"[4].

واختلف فى السبب الذى من أجله دخل المدينة فى هذا الوقت ، قيل :" إن موسى فى هذا الوقت كان يسمى ابن فرعون فكان يركب مراكب فرعون ويلبس ملابس مثله ، فركب فرعون يوما وليس عنده موسى ، فلما جاء موسى قيل له : إن فرعون قد ركب فركب فى أثره فأدركه المقيل بأرض منف فدخلها نصف النهار وليس فى طرفها أحد ، وقيل : كان لموسى شيعة من بنى اسرائيل يستمعون إليه ويقتدون به ، فلما عرف ما هو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه ، فخالفهم فى دينه حتى ذكر ذلك منه وخافوه وخافهم ، فكان لا يدخل قرية إلا خائفا مستخفيا ، فدخلها يوما على حين غفلة من أهلها ، وقيل : لما علا موسى بالعصا فى صغره أراد فرعون قتله ، قالت امرأته: هو صغير فترك قتله ، وأمر بإخراجه من مدينته ، فلم يدخل عليهم إلا بعد أن كبر وبلغ أشده ، فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها يعنى : عن ذكر موسى أى : من بعد نسيانهم خبره وأمره لبعد عهدهم به"[5].

والقول الأولى بالقبول والاعتبار من هذه الأقوال أن نقول: إنه لا فائدة من معرفة سبب دخوله على غفلة ، إذ لو كان هناك فائدة لذكرها القرآن الكريم ؛ وهذا ما دفع الإمام الرازى بعد أن ذكر هذه الروايات إلى القول بأنه :" لا مطمع فى ترجيح بعض هذه الروايات على بعض ؛ لأنه ليس فى القرآن ما يدل على شيء منها"[6].

وقد يتساءل سائل لماذا دخلت (على) على (حين) من أن المعنى لا يتنافى لو قلنا حين غفلة من أهلها بدون ذكر(على)؟ والجواب ، ما قاله النحاس :" دخلت (على) فى هذه الآية ؛ لأن الغفلة هى المقصودة فصار هذا كما تقول : جئت على غفلة وإن شئت قلت : جئت على حين غفلة"[7].

---

(1) أصلها بلغة القبط ماف ثم عربت فقيل منف وهى أول مدينة بنيت بأرض مصر بعد الطوفان [معجم البلدان ٥/٢١٣-٢١٤].

(2) ينظر البحر المحيط ١٠٩/٧ ، لـ أبي حيان الأندلسي ،دار الكتاب الإسلامي ،القاهرة ،الثانية،١٤١٣ه،١٩٩٢م، النكت والعيون ٢٤١/٤ ، نظم الدررفي تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، ٢٥٥/١٤ ، البغوى المسمي معالم التنزيل ،لـ أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي، ٤٣٨/٣ ، دار المعرفة بيروت ،تحقيق خالد عبد الرحمن ، الخازن ٣٩٩/٣ ط دار المعرفة ، الكشاف ٤٠٢/٣ ، التحرير والتنوير ٨٨/٢٠ .

(3) المفردات للراغب ص٣٦٢ كتاب الغين .

(4) ينظر البغوى ٤٣٨/٣ ، الكشاف ٤٠٢/٣ .

(5) تفسير البغوى ٤٣٨/٣ -٤٣٩ ، جامع البيان ٤٣/٢٠-٤٤ .

(6) مفاتيح الغيب المجلد الثانى عشر ٢٠٠/٢٤ .

(7) إعراب القرآن للنحاس ٢٢٢/٣ .

والسؤال الآن ما الذى وجده موسى حين دخل علىغفلة ؟ وماذا حدث ؟ والجواب ما حكاه القرآن الكريم بقوله" فوجد فيهما رجلين يقتتلان" "أى يختصمان ويتنازعان" [١]" وقيل يفعلان مقدمات القتل من الملازمة مع الحنق والضرب"[٢].ولقد كشف القرآن الكريم عن هوية الرجلين فقال" هذا من شيعته وهذا من عدوه" قال ابن عاشور :" الشيعة الجماعة المنتمية إلى أحد ، والعدو الجماعة التى يعاديها أى يبغضها موسى"[٣] ويتضح من القصة أن الذى من شيعته كان من بنى اسرائيل والذى من عدوه كان من أنصار فرعون ، قال الزجاج :" هذا ... وهذا... غائبان على وجه الحكاية أى وجد فيها رجلين يقتتلان إذا نظر الناظر إليهما قال هذا من شيعته وهذا من عدوه"[٤].

واختلف فى سبب التنازع :" فقيل كان أمرا دينيا ، وقيل كان أمرا دنيويا ، وهو الأقرب للصواب ؛ فقد روى أن القبطى كلف الإسرائيلى حمل الحطب إلى مطبخ فرعون فأبى فاقتتلا"[٥] وهذا يدل على مدى الظلم والتسخير من الأقباط للإسرائيلين ؛ وهذا ما دفع موسى للغضب الشديد والانفعال ، فهو لم يغضب لأجل أن أحدهما من شيعته ، وإنما غضبه من هذا الظلم والقهر ؛ ولذلك عندما استغاث به الإسرائيلى أغاثه ، قال تعالى :" فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه" . قال ابن عاشور :" طلب الغوث وهو التخليص من شدة أو العون على دفع مشقة ، وهذا يؤذن بأن الإسرائيلى كان مغلوبا ، وأن القبطى اشتد عليه وكان ظالما إذ لا يجبر أحد على عمل يعمله"[٦] والوكز كما قال الراغب :" الطعن والدفع والضرب بجميع الكف"[٧]وقال ابن منظور:" وكز وكزه وكزا دفعه وضربه مثل نكزه ، فالوكز الطعن ووكزه طعنه بجمع كفه وقيل ضربه بجمع يده على ذقنه[٨] وقيل الوكز الضرب بأطراف الأصابع"[٩].

وهذه المعان تدل على أن الوكز ليس من باب الضرب المؤثر قتلا وإهلاكا ، ولو كان موسى مريدا قتله لقتله ، لا سيما وقد أعطى من القوة التى لم تعط لأحد فى زمانه مثلها ، يقول الدكتور أحمد بهجت :" لا يمكن اعتبار هذه الواقعة بالتكييف القانونى ضربا أفضى إلى موت .. لأن الضرب لم يكن مقصودا هو الآخر فلم يكن موسى يضرب الرجل .. كل ما فعله أنه وكزه .. ولسوف نلاحظ أن موسى يكاد يكون هو الوجه الآخر لإبراهيم .. كلاهما من أولى العزم الكبار غير أن إبراهيم نموذج للحلم والرقة وموسى نموذج للاندفاع والقوة"[١٠].

---

[١] تفسير البغوى ٤٣٩/٣ ، وينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٨٣/٣ ، ط. دار الفكر .
[٢] نظم الدرر للبقاعي ٢٥٥/١٤ .
[٣] التحرير والتنوير لابن عاشور ٨٩/٢٠ .
[٤] معانى القرآن وإعرابه للزجاج ١٣٦/٤ . بتصرف .
[٥] روح المعانى للألوسى ٢٠/ ٥٣ .
[٦] التحرير والتنوير ٨٩/٢٠ بتصرف .
[٧] المفردات في غريب القرآن صـ٥٣١ .
[٨] لسان العرب ٤٩٠٦/٦ ، باب الواو مادة وكز.
[٩] التسهيل ١٠٣/٣ ، وينظر الكشاف ٤٠٢/٣ .
[١٠] أنبياء الله لأحمد بهجت صـ ١٨٩ ، دار الريان للتراث .

وقال الإمام البقاعى :" لم يعط أحد من أهل ذلك الزمان مثل ما أعطى موسى من القوة الذاتية والمعنوية"[١].

" فلقد كان من موسى -عليه السلام- التلبية الفورية للاستغاثة كما تفيد الفاء فى قوله (فوكزه) ثم الأثر القاتل السريع(فقضى عليه)"[٢] ومع أن موسى -عليه السلام- لم يرد قتله إلا أن الله -ﷻ-قدر موته بهذه الوكزة ؛ ليعلم نبيه التريث والتمهل فى الأمور، ويعلمه كيفية فض النزاع بالوعظ والنصح لا بالقوة والعنف ، فهو الرسول المبعوث رحمة وهداية ، وقد عبر الله -ﷻ- عن موت القبطى بقوله (فقضى عليه) والفاء "للسببية"[٣] أى أن المسبب للموت هى تلك الوكزة التى وكزها موسى القبطى ، قال الإمام البغوى :" قتله وفرغ من أمره وكل شيء فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه"[٤]"وقيل أنهى حياته وجعلها منتهية"[٥]"ويعود الضمير فى قضى على موسى هو الظاهر وقيل عائد إلى الله أى حكم عليه بالموت وتكون قضى بمعنى حكم ، وقيل يحتمل ان يكون عائد إلى المصدر المفهوم من وكزه أى فقضى الوكز عليه أى أنهى حياته"[٦]. ولأنه -عليه السلام- كان بإمكانه دفعه دون وكزه أو زجره أو الفصل بينهما بالحكمة وكف الباغى بالنصيحة ؛ عد فعله الذى هم به من وكزه للقبطى من عمل الشيطان فقال :" هذا من عمل الشيطان" "أى من إغوائه"[٧]"وقيل من تزيينه وهو ما اختاره الألوسى"[٨] ولا مانع من إرادة المعنيين ؛ لأن الشيطان إذا أضل أحد فقد أغواه وزين له عمله ، قال محمد على الصابونى :" نسبه إلى الشيطان من حيث أنه لم يؤمر بقتله فظهر له أن قتله خلاف الأولى ؛ لما يترتب عليه من الفتن ، والشيطان تفرحه الفتن ؛ ولذلك ندم على فعله"[٩].

وقيل :" قال موسى ذلك ؛ لأن قتل النفس مستقبح فى الشرائع البشرية ؛ وحفظ النفس المعصومة ، من أصول الدين كله ، وكان موسى يعلم دين آبائه وربما تلقاه من أمه الصالحة فى مدة رضاعه وفى مدة زيارته إياها"[١٠].

ولقد اختلف المفسرون فى عود اسم الإشارة فى قوله" هذا" فجاء فى (الخازن) أن هذا إشارة إلى عمل المقتول لا إلى عمل نفسه ، والمعنى أن عمل هذا المقتول من عمل الشيطان والمراد بيان كونه مخالفا لله تعالى مستحقا للقتل ، وقيل:

---

[١] نظم الدرر ٢٥٦/١٤ ، بتصرف .
[٢] في موكب النبيين ،لسيد أحمد الكيلاني ،٣٥٢/٢.
[٣] أوضح المسالك إلى الفية ابن مالك ، لـ جمال الدين بن هشام الأنصارى٣٦١/٣ ، دار الجيل بيروت ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م ، الخامسة ، تحقيق / محمد محي الدين عبد الحميد.
[٤] تفسير البغوى ٤٣٩/٣ .
[٥] روح المعانى ٥٤/٢٠ .
[٦] روح المعانى ٢٠ /٥٤ ، وينظر البحر المحيط ١٠٩/٧ ، التحرير والتنوير ٨٩/٢٠-٩٠ .
[٧] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد السابع ١٧٣/١٣ ، ط. الأولى ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م ، النكت والعيون ٢٤٢/٤ .
[٨] روح المعانى ٥٤/٢٠ .
[٩] صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني، ٢٤٧/٢ ، ط. دار القرآن بيروت،الرابعة .
[١٠] التحرير والتنوير ٩٠/٢٠ بتصرف .

إشارة إلى المقتول نفسه أى أن المقتول من جند الشيطان وحزبه"[١]. وجاء فى التحرير أن الإشارة" بهذا" إلى الضربة الشديدة التى تسبب عنها الموت ، أو إلى الموت المشاهد من ضربته ، أو إلى الغضب الذى تسبب عليه موت القبطى"[٢].

والذى أميل إليه من هذه الأقوال أن هذا إشارة إلى الغضب الذى هيجه فجعله يتسرع بوكز القبطى بدلا من زجره ، والغضب عمل من أعمال الشيطان. قال الإمام أبو بكر الجزائرى:" هذا القول اعتراف من موسى بأن ضربه القبطى كان من تهييج الشيطان لغضبه فهو عدو للإنسان مضل عن طريق الخير والهدى ، ظاهر العداوة للإنسان"[٣]،وهذا يدل على أنه "لولا الخاطر الشيطانى لاقتصر على زجر القبطى أو كفه عن الذى من شيعته ، وفى هذا دليل على أن الأصل فى النفس الإنسانية هو الخير ، وأن الانحراف عنها يحتاج إلى سبب غير فطرى وهو تخلل نزع الشيطان فى النفس"[٤].

وهذا تعليق جيد من صاحب التحرير والتنوير فإن الله -ﷻ- قد وجه عباده للخير وأعانهم عليه بفطرة سليمة مستقيمة ؛ لذلك اعتبر فعله هذا ظلما لنفسه حيث وضع الغضب والانفعال بضرب القبطى موضع التريث والتمهل بالحكم والقضاء والوعظ والنصح ، فقال :" رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى" ، قال الإمام الألوسى :"كأنه عليه السلام بعد أن وقع منه ما وقع تأمل فظهر إمكان الدفع بغير الوكز وكأنه لم يتثبت فى رأيه لما اعتراه من الغضب فعلم أنه فعل خلاف الأولى بالنسبة إلى أمثاله ؛ فقال ماقال على عادة المقربين فى استعظامهم خلاف الأولى"[٥] وجاء فى (التحرير) سمى فعله ظلما لنفسه ؛ لأنه كان من أثر فرط الغضب وكان يستطيع أن يملك غضبه فكان تعجيله بوكز القبطى وكزة قاتلة ظلما جره لنفسه وسماه فى سورة الشعراء ضلالا" **قال فعلتها إذا وأنا من الضالين**[٦]"[٧] وذهب البعض إلى القول بأن قوله" ظلمت نفسى" "بمعنى عرضتها للقتل ؛ فإن فرعون لو عرف ذلك لقتلنى به ويكون قوله" فاغفر لى" أى استره على ولا توصل خبره إلى فرعون" فغفر له" أى فستره عن الوصول إلى فرعون "[٨] وهذا القول بعيد ؛ لأن موسى عليه السلام عندما استغفر وندم لم يخف إلا من العقاب الأخروى لا الدنيوى ، فهو خائف من عقاب الله وغضبه لا من غضب فرعون وبطشه ، قال قتادة[٩]:

---

(١) تفسير الخازن ٣٩٩/٣ .
(٢) التحرير والتنوير ٩٠/٢٠ .
(٣) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ، لـ أبى بكر الجزائرى ٥٩/٤ ، ط. الأولى ١٤١٥ هـ ، ١٩٩٤ م ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة .
(٤) التحرير والتنوير ٩٠/٢٠ .
(٥) روح المعانى ٥٤/٢٠-٥٥ .
(٦) سورة الشعراء ، الآية: ٢٠ .
(٧) التحرير والتنوير ٩١/٢٠ .
(٨) تفسير الخازن ٣٩٩/٣ ، بتصرف .
(٩) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز أبو الخطاب السدوسي البصري ، مفسر حافظ ، ضرير أكمه ، ولد أعمى وكان أبوه أعرابيا ولد بالبادية وأمه سرية من مولدات الأعراب ، وكان ذا علم فى القرآن والحديث والفقه ، وهو من الطبقة الثالثة من النابغين بالبصرة ، مات بها سنة ١١٧ فى أيام هشام بن عبد الملك ، وأخذ القراءة عن الحسن البصري وابن سيرين . (الأعلام للزركلي ،١٨٩/٥،الثامنة ،١٩٨٩م ، وانظر الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية لزين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي الجزء الأول ، القسم الثاني صـ ٤٠٦،٤٠٧، دار صادر بيروت الأولى ،١٩٩٩م ، تحقيق محمد أديب

" لم يزل عليه السلام يعدد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غفر له ، حتى إنه يوم القيامة يقول: إني قتلت نفسا لم أومر بقتلها"[1].

ولا يقدح هذا فى عصمته -عليه السلام- فما فعل ما فعل إلا لدفع ظلم وإغاثة مظلوم ، كما أنه قد ضاق صدره من هذا الظلم والجور الواقع على الإسرائيليين من قبل الأقباط ، ولأن الله -ﷻ-يعلم ما فى نفسه من الضيق فقد غفر له ما فرط منه ، يقول الشيخ سيد قطب:" الله العليم بالنفوس يعلم أن للطاقة البشرية حدا فى الاحتمال ، وأن الظلم حين يشتد وتغلق أبواب النصفة يندفع المضطهد إلى الهجوم والاقتحام ، فلم يهول فى وصف الفعلة التى فعلها موسى ، كما تهول الجماعات البشرية التى مسخ الظلم فطرتها بإزاء مثل هذا العمل الفطرى مهما تجاوز الحدود تحت الضغط والكظم والغيظ ، وهذه هى العبرة التى تستشف من طريقة التعبير القرآنية .... فهو لا يبرر الفعلة ولكنه كذلك لا يضخمها ، ولعل وصفها بأنها ظلم للنفس إنما نشأ من اندفاع موسى بدافع العصبية القومية وهو المختار ليكون رسول الله ، المصنوع على عين الله ... أو لعله كان لأنه استعجل الاشتباك بصنائع الطغيان ، والله يريد أن يكون الخلاص الشامل بالطريقة التى قضاها ، حيث لا تجدى تلك الاشتباكات الفردية الجانبية فى تغيير الأوضاع كما كف الله المسلمين فى مكة عن الاشتباك حتى جاء الأوان"[2].

وأختم كلامى فى هذا المبحث بما ذكره أستاذى الفاضل د/ أبو النور الحديدى فى كتابه (عصمة الأنبياء) إذ يقول:"إغاثة موسى -عليه السلام- للإسرائيلى لم تكن لمجرد أنه من شيعته وإنما كان لظلم المصرى له ، وتحميله فوق طاقته ، إذ كان السائد وقتها هو استعباد فرعون وقومه للإسرائيليين والمبالغة فى امتهانهم ، وتجاوز الحد فى ظلمهم ، ولم يكن الظلم صادرا من فرعون وحده ، وإنما منه ومن قومه فالناس على دين ملوكهم ، ولا يعقل أن يظلم فرعون الإسرائيليين ثم يحسن المصريون معاملتهم ، وإنما كان إذلال الإسرائيليين وتسخيرهم ظلما وبغيا مبدأ متفقا عليه ، ومنهجا عاما يطبقه فرعون وقومه ... والإنسان ذو المروءة والنجدة تأبى عليه مروءته ونجدته أن يرى مظلوما ثم لا ينتصف له من ظالمه ، بل الشرائع توصى بنصر المظلوم ، وتجعله حتما على من يقدر عليه ، فمافعله عليه السلام إنما تمليه عليه القيم الإسلامية النبيلة والشرائع السماوية المنصفة ، وما ترتب على صنيعه من القتل غير مقصود"[3] " وإنما المقصود دفع ظلم القبطى بوسيلة رأها موسى مناسبة لم يجد معه أقل منها ، ولا تؤدى فى أصلها إلى القتل ، فهذا الفعل من موسى -عليه السلام -خلاف الأولى ؛ لأن أمثاله إنما الأولى بهم أن يفصلوا بين خصمين يبغى أحدهما على الآخر ، ويكفوا الباغى منهما بالنصيحة والموعظة الحسنة"[4].

ثانيا : تعجل موسى -عليه السلام- للقاء الله-ﷻ- :

بعد أن أغرق الله فرعون وجنوده ، ونجى بنى اسرائيل من ظلم الباغى وجبروته ، بل لقد نجى فرعون ببدنه ليكون آية ناطقة على قدرة الله -ﷻ- ويكون عبرة لمن أراد أن يعتبر "استقرت عصا

الجادر ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ٦/٥ دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١١هـ ، الأولى ، وانظر طبقات المفسرين للداودى صـ١٤ ، مكتبة العلوم والحكم ، السعودية ١٤١٧هـ ١٩٩٧م ، الأولى ، سليمان بن صالح الخزي).

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد السابع ١٧٣/١٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨ م .

[2] الظلال المجلد الخامس ، ٢٦٨٤/٢٠ .

[3] عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجه إليهم لـ الدكتور أبو النور الحديدى صـ ١٧٢ .

[4] عصمة الأنبياء لـ الدكتور أبو النور الحديدى صـ ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

التسيار بموسى ومن معه ، فأقاموا حيث واتاه المقام ، ومن ثم احتاجوا إلى منهاج يسيرون عليه ، وشرع يركنون إليه ، فسأل موسى ربه كتابا به يهتدون وإلى حكمه يرجعون ، فيه من الأمر ما يأتون ومن النهى ما يذرون ؛ حتى لا تتردى بهم أيام الزمان ؛ ولا يخبطوا فى أمور المعاش والمعاد خبط عشواء ، أمر الله موسى أن يتطهر وأن يصوم ثلاثين يوما ثم يأتى إلى طورسيناء[1] ؛حتى يكلم ربه فيتلقى أمره فى كتاب يكون لهم المرجع والمآب[2].

ولقد قص لنا القصص القرآنى هذه المواعدة فقال عز من قال :"**وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين**"[3] "وكان موسى قد ترك قومه واستخلف عليهم أخاه هارون وزيرا يقوم على شئونهم ويصلح أمورهم ويرعى أحوالهم ؛ حتى يعود يحمل الأمانة الغالية ويسعد بذلك الشرف الموعود"[4]. ويبدو أن موسى –عليه السلام –كان مشتاقا لهذا اللقاء ؛ إذ هو لقاء الحبيب مولاه –ﷻ– كما أن فيه تلقى كتاب به هداية وصلاح فى الدنيا والعقبى لبنى اسرائيل ؛ الأمر الذى جعله متعجلا مشتاقا لهذا اللقاء ، قال الشيخ/سيد قطب:" غلب الشوق على موسى إلى مناجاة ربه والوقوف بين يديه ، وقد ذاق حلاوتها من قبل[5] فهو إليها مشتاق عجول"[6].

تعجل موسى عليه السلام للقاء الحبيب –ﷻ–غير مكترث بما سيحدث لقومه بعد غيابه ؛ لذلك عاتبه الله –ﷻ–على هذا التعجل لما ترتب عليه من مفاسد عظيمة .

قال تعالى منكرا على موسى تعجله مستفهما منه الحامل على العجلة :" **وما أعجلك عن قومك يا موسى {} قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى**"[7].

والعجلة كما سبق هى طلب الشيء وتحريه قبل أوانه[8] وهذا ما فعله صلوات الله عليه وسلامه ، فقد واعده ربه –ﷻ– فاستعجل الميعاد شوقا للقائه. فلقد جعل المولى –ﷻ– لكل أمر وقتا محددا وهو أعلم بالمصالح المتعلقة بإتيان هذا الأمر فى هذا الوقت ، وسيدنا موسى يعلم ذلك علم اليقين إلا أنه غاب عنه هذا لشدة اشتياقه لله –ﷻ–وحرصه الشديد على الإتيان بما فيه هداية لقومه ، وليسأل كل منا نفسه: من منا لا يحب لقاء الحبيب ؟ فإذا واعد حبيب حبيبه نجده يسرع ويتعجل غير مكترث بعواقب هذا

---

(1) سينا بكسر أوله اسم موضع بالشام يضاف إليه الطور فيقال طور سيناء وهو الجبل الذى كلم الله تعالى عليه سيدنا موسى عليه السلام ونودى فيه وهو كثير الشجر (معجم البلدان ٣/٣٠٠) قال الرازى طور سيناء جبل بالشام وهو طور أضيف إلى سيناء وهو شجر وكذا طور سنين (مختار الصحاح لمحمد بن عبد القادر الرازى صـ١٣٧ باب السين ، مكتبة لبنان بيروت،١٤١٥هـ- ١٩٩٥م ، تحقيق محمود خاطر).

(2) قصص القرآن للمرحوم محمد أحمد جاد المولى صـ ١٣٢ وينظر قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس لـ أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابورى المعروف بالثعلبي، صـ ٢٢٦- ٢٢٧ ،مكتبة الإيمان .

(3) سورة الأعراف الآية: ١٤٢ .

(4) قصص القرآن لجاد المولى صـ ١٣٣ .

(5) وذلك عند بداية نزول الوحى عليه ومناداة ربه عزوجل له وهو بالوادى المقدس بقوله" إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى " سورة طه الآية: ١٢ ، وهذه السورة تزخر بهذه المناداة وتبين مدى استئناس سيدنا موسى لكلام الله عزوجل ومناجاته

(6) فى ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٦ .

(7) سورة طه الآيتان: ٨٣ ، ٨٤ .

(8) المفردات للراغب صـ ٣٢٣ كتاب العين .

التعجل فما بالنا بلقاء المولى -ﷻ- فهذه الآية كما قال المفسرون" حكاية لما جرى بين الله وموسى عند موافاته الميعاد ، وكانت المواعدة أن يوافي موسى جماعة من وجوه قومه ، فصار موسى بهم ثم عجل من بينهم شوقا إلى ربه"[1]،وقد يتساءل البعض إذا كان موسى عليه السلام قد تعجل اللقاء شوقا لله وحرصا على هداية القوم فلماذا أنكر الله -ﷻ-عليه هذا التعجل ؟ والجواب فيه وجوه :

-**الوجه الأول** : أن قوم موسى كانوا حديثي عهد بالإيمان بالله ، واتباع موسى ، وكانت معتقداتهم مازالت مسيطرة عليهم ، بل إنهم عندما مروا بقوم يعبدون الأصنام طلبوا من موسى-عليه السلام- أن يجعل لهم إلها كما لهم آلهة ، قال تعالى:" **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون**"[2]. قال ابن كثير :" قالوا هذا الجهل والضلال ، وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ما دلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذى الجلال والإكرام ، وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصناما ، قيل كانت على صور البقر فكأنهم سألوهم لما تعبدونها ؟ فزعموا أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضرورات ، فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم فى ذلك ، فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة ، فقال لهم مبينا لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون:"**إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون**[3]"ثم ذكرهم نعمة الله عليهم فى تفضيله إياهم على عالمى زمانهم بالعلم والشرع ، والرسول الذى بين أظهرهم ، وما أحسن به إليهم ، وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العتيد وإهلاكه إياه وهم ينظرون ، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعون من الأموال والسعادة ، وما كانوا يعرشون ، وبين لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له ؛ لأنه الخالق الرازق القهار"[4] قال الدكتور محمد الطيب النجار:" بنو اسرائيل قد عاشوا فترة طويلة فى أرض مصر قبل فرارهم من فرعون قد رأوا تلك العبادة ، وعاشوا فى جوها ، وأتخمت مشاعرهم بصورتها الخبيثة وهيئتها الخسيسة ، وزكمت رائحتها العفنة أنوفهم ، حتى كادت تصبح شيئا مألوفا لديهم"[5] وعلى هذا فعبادة غير الله كانت ومازالت مسيطرة عليهم ومعتقداتهم وموروثاتهم من الصعب التخلص منها ، وبالتالى فهم محتاجون دوما إلى من يردهم إلى صوابهم ويذكرهم بالله -ﷻ- ونعمه عليهم ، فلما واعد الله موسى -عليه السلام- تعجل إلى ربه شوقا إليه ؛ ظنا منه أن التعجل خير لقومه لإتيانه بكتاب فيه صلاح معاشهم وميعادهم ، فلم يراع فى ذلك إلا المصلحة ، وغاب عنه عواقب هذا التعجل .

قال الشيخ/سيد قطب فى الظلال :" نسى موسى أن الاستعباد الطويل والذل الطويل فى ظل الفرعونية الوثنية كان قد أفسد طبيعة القوم وأضعف استعدادهم لاحتمال التكاليف والصبر عليها"[6] ؛ لذلك

---

[1] فتح القدير ٣٧٩/٣ ، وينظر إرشاد العقل السليم لـ أبى السعود ٣٣/٥ ، وروح المعانى ٢٤١/١٦ .
[2] سورة الأعراف الآية: ١٣٨ .
[3] سورة الأعراف الآية: ١٣٩ .
[4] قصص الأنبياء لابن كثير صـ ٣٦١-٣٦٢ ، ط. الأولى ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م ، دار التراث العربى .
[5] تارخ الأنبياء فى ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ، د/ محمد الطيب النجار صـ ٢٥٥ ، ط. دار الاعتصام .
[6] فى ظلال القرآن الكريم ٢٣٤٦/٤ ، بتصرف يسير.

عاتبه الله للخروج متعجلا من بينهم قبل أن يوصيهم بحفظ العهد ، ويحذرهم من الماكرين الفاسدين الذين يتربصون بهم الدوائر ، قال ابن عاشور:"والذى يؤخذ من كلام المفسرين وتشير إليه الآية أن موسى تعجل مفارقة قومه ؛ ليحضر إلى المناجاة قبل الأوان الذى عينه له الله اجتهادا منه ، ورغبة فى تلقى الشريعة حسبما وعده الله قبل أن يحيط بنو اسرائيل بجبل الطور، ولم يراع فى ذلك إلا السبق إلى ما فيه خير لنفسه وقومه ، فلامه الله على أنه غفل عن مراعاة ما يحف بذلك من ابتعاده عن قومه قبل أن يوصيهم الله بالمحافظة على العهد ويحذرهم مكر من يتوسم فيهم مكرا"[1]. وزاد الإمام محمد أبو زهرة قائلا :" عتب عليه أن سبق قومه وتركهم وهم يحتاجون إلى رعايته ومراقبة خواطرهم ببصيرته وهم قريبوعهد بمعاشرة الفاسقين"[2].

وهذا الوجه قائم على أن المراد بالقوم فى قوله" عن قومك" هم جميع بنى اسرائيل ، وهو ما ذهب إليه جماعة من المفسرين ، منهم أبو حيان فى (البحر) حيث قال :" الظاهر أن قوله -ﷻ-"عن قومك" يريد به جميع بنى اسرائيل ، حيث قال لما نهض موسى -عليه السلام- ببنى اسرائيل إلى جانب الطور الأيمن حيث كان الموعد أن يكلم الله موسى بما فيه شرف العاجل والآجل ، رأى على وجه الاجتهاد أن يقدم وحده مبادرا إلى أمر الله تعالى ، وحرصا على القرب منه واستخلف هارون على بنى اسرائيل"[3].

وجاء فى (التسهيل) :" أن موسى لما أمره الله أن يسير هو وبنو اسرائيل إلى الطور تقدم هو وحده مبادرا إلى أمر الله وطلبا لرضاه ، وأمر بنى اسرائيل أن يسيروا بعده واستخلف عليهم أخاه هارون فأمرهم السامرى[4]حينئذ بعبادة العجل فلما وصل موسى إلى الطور دون قومه قال له تعالى:"ما أعجلك عن قومك[5]" ونلمح مما سبق أن موسى قد ترك قومه مستخلفا عليهم سيدنا هارون -عليه السلام- وتعجل هو للقاء ربه ، وعليه فمعنى قوله" هم أولاء على أثرى" "أى قادمون ينزلون قريبا من الطور"[6] "أو تكون بمعنى "بالقرب منى ينتظرون عودتى إليهم"[7].

وهناك معنى آخر يدور فى خلدى أن يكون موسى قد ترك قومه متعجلا للقاء ربه وهو على علم أنهم محافظون على عهده ولذلك قال" هم أولاء على أثرى" أى على طريقتى ومنهاجى حافظين لعهدى غير منحرفين عن الصراط الذى أوضحته لهم .

-**الوجه الثانى من وجوه الإنكار** :أن الله -ﷻ-أنكر عليه تعجله ؛ ليعلمه آداب السفر وآداب المصاحبة ، وأن الواجب على القائد أن يسير وراء من صحبهم ؛ ليكون مهيمنا عليهم بصيرا بهم ، ففى

---

(1) التحرير والتنوير ٢٧٧/١٦.
(2) زهرة التفاسير للإمام محمد أبى زهرة ،٤٧٦٦/٩ ، ط .دار الفكر العربى .
(3) البحر المحيط ٢٦٦/٦ -٢٦٧ ، بتصرف وينظر تفسير القرآن العظيم لإبن كثير ١٦٢/٣ ، وجامع البيان للطبرى ١٩٥/١٦-١٩٦ .
(4) السامرى منسوب إلى قبيلة من بنى اسرائيل يقال لها السامرة وقيل كان علجا من كرمان وقيل كان من أهل باجرما واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا قد أظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر [انظر إرشاد العقل السليم ٣٤/٥] .
(5) التسهيل للكلبى ١٧/٣ .
(6) تفسير القرآن العظيم لإبن كثير ١٦٢/٣ .
(7) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد السادس ١٥٥/١١ ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨م.

(الإنصاف): "سأل الله موسى عن سبب العجلة – وهو سبحانه أعلم – تعليما لآداب السفر وهو أنه ينبغي تأخر رئيس القوم عنهم ؛ ليكون بصره بهم مهيمنا عليهم ، وهذا المعنى لا يحصل مع التقدم ، ألا ترى كيف علم الله هذا الأدب لوطا فقال سبحانه"**واتبع أدبارهم**[1]" وموسى –عليه السلام –إنما أغفل هذا الأمر؛ مبادرة إلى رضا الله ؛ ومسارعة إلى الميعاد"[2].

قال الدكتور وهبة الزحيلى :" أنكر الله عليه تعجله تعليما للأدب الحسن الرفيع فى المصاحبة"[3] وعلى هذا الوجه فالمراد بالقوم" عن قومك" هم النقباء السبعون الذين اختارهم للمواعدة ، قال أبو السعود : "السؤال عن سبب تقدمه على النقباء مسوق لإنكار انفراده عنهم ؛ لما فى ذلك بحسب الظاهر من مخايل إغفالهم وعدم الاعتداد بهم ، مع كونه مأمورا باصطحابهم وإحضارهم معه"[4] ؛ لذلك اعتذر موسى –عليه السلام– بأنه لم يتقدمهم إلا خطى يسيرة لا تقدح فى المصاحبة فقال": هم أولاء على أثرى" قال الإمام المراغى :"أى بالقرب منى آتون على أثرى ، وما تقدمتهم إلا بخطى يسيرة لا يعتد بها وليس بينى وبينهم إلا مسافة قريبة يتقدم بها بعض على بعض"[5] "وأثر الشيء هو حصول ما يدل علي وجوده يقال أثر وأثر والجمع آثار ، ويقال للطريق الذى يستدل به على من تقدم آثار"[6] وهذا المعنى اللغوى يبين قرب سيدنا موسى منهم وأنه لم يبعد عنهم كثيرا ، قال ابن عاشور: "الأثر بفتحتين ما يتركه الماشى على الأرض من علامات قدم أو حافر أو خف"[7].

الوجه الثالث من وجوه الإنكار : أن الله أنكر عليه العجلة ذاتها إذ هى نقيصة ؛ لما فيها من تقديم الأمر قبل أوانه المقدر له ، وهذا لا يليق برسل الله –صلوات الله عليهم وسلامه– لاسيما سيدنا موسى إذ هو من أولى العزم ، قال الإمام المراغى :" أنكر عليه الله تعجله ذاته إذ هو من أولى العزم الذين يجدر بهم المزيد من الحزم"[8].وقد اعترض الإمام أبو السعود على هذا القول وحجته :"أن رسل الله اللائق بهم مزيد الحزم لاسيما أولى العزم ، والعجلة نقيصة منافية للحزم اللائق بهم"[9].

وهاهنا سؤال قد طرحه الإمام الزمخشرى –رحمه الله– وأجاب عليه حيث قال :" إن قلت:[ما أعجلك؟] سؤال عن سبب العجلة فكان الذى ينطبق عليه من الجواب أن يقال أطلب زيادة رضا أوالشوق إلى كلامك وتنجيز موعدك وقوله" هم أولاء على أثرى" غير منطبق عليه؟!

---

(1) سورة الحجر من الآية: ٦٥ .

(2) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لـ الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد المنير الاسكندرى المالكى بهامش الكشاف ٤٤٣/٢ ، ط. دار المعرفة بيروت لبنان .

(3) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج لـ الدكتور وهبه الزحيلي، ٢٦٢/١٦ ، بتصرف، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان ، دار الفكر دمشق سورية ،الأولى ،١٤١١ه-١٩٩١م .

(4) إرشاد العقل السليم لـ أبى السعود ٣٣/٥ .

(5) تفسير المراغى ١٣٨/١٦ .

(6) المفردات للراغب صـ ٩ ، كتاب الألف .

(7) التحرير والتنوير ٢٧٨/١٦ .

(8) تفسير المراغى ١٣٨/١٦ بتصرف .

(9) إرشاد العقل السليم لـ أبى السعود ٥/ ٣٣ بتصرف .

أجاب : قد تضمن ما وجهه رب العزة شيئين: أحدهما إنكار للعجلة فى نفسها ، والثانى السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه ، فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه ، فاعتل بأنه لم يوجد منى إلا تقدم يسير مثله لا يعتد به فى العادة ، وليس بينى وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدم به الوفد رأسهم وقدمهم ، ثم أعقبه بجواب السؤال عن السبب فقال: وعجلت إليك رب لترضى ، ولقائل أن يقول: حار لما ورد عليه التهيب لعتاب الله فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق على حدود الكلام"[1]. ولقد اعترض أبو حيان على هذا القول الأخير فقال :"هذا القول فيه سوء أدب على الأنبياء عليهم السلام"[2]

قال الإمام الألوسى :" قوله" هم أولاء على أثرى" متضمن لبيان اعتذاره عليه السلام ، كأنه قال إنهم لم يبعدوا عنى وأن تقدمى عليهم بخطى يسيرة ، وظنى أن مثل ذلك لا ينكر وقد حملنى عليه استدامة رضاك ، وقدم عليه السلام الاعتذار عن إنكار الفعل لأنه أهم"[3].

وخلاصة هذه الأقوال : أن الله سبحانه وتعالى أنكر على سيدنا موسى عجلته فكان موسى عليه السلام ما عليه إلا أن قدم العذر عليها بقوله" هم أولاء على أثرى" ثم بين له سبب العجلة بقوله" وعجلت إليك رب لترضى" وأما ما قيل إن سيدنا موسى قد دخلته الهيبة من عتاب الله فلم يتمكن من الجواب بالوجه الصحيح فبعيد ؛ لأنه لا يليق بالأنبياء عليهم السلام كما قال صاحب البحر المحيط .

هذه هى الوجوه المحتملة لإنكار الله على نبيه موسى عجلته بقوله" وما أعجلك" ، ***وأولى هذه الوجوه*** -والله أعلم- هو الأول وهو: أن المراد بالقوم جميع بنى اسرائيل وأن الله أنكر عليه تركه لهم متعجلا للقائه -ﷻ-لا سيما وهم قريبو عهد بمعاشرة الفاسقين ومازالت معتقداتهم مسيطرة عليهم ، فأنكر عليه هذا التعجل لما ترتب عليه من فتنتهم باتخاذ العجل إلها ، قال تعالى :" **قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري**"[4].

أما الوجه الثانى : وهو أن المراد بالقوم السبعون المختارون ، وأن الله أنكر عليه تعجله لأنه مأمور باستصحابهم ، وبتقدمه يخل بالمعية والمصاحبة ، فهذا تعليم وإرشاد لأدب المصاحبة ومن شأنه التوجيه والتعليم لا الإنكار.

أما الوجه الثالث : وهو أن الإنكار للعجلة ذاتها لكونها نقيصة فنقول : العجلة ليست مذمومة على الإطلاق ، بل إنها قد تكون ممدوحة إذا كانت تتعلق بأمور الدين. قال الإمام الرازى رحمه الله :" العجلة ممدوحة فى الدين قال تعالى" **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم** "[5]"[6] كما أن المواعدة كانت للقاء الله -ﷻ-

---

(1) الكشاف ٨١/٣ بتصرف .
(2) البحر المحيط ٢٦٧/٦ .
(3) روح المعانى ٢٤١/١٦ ، ٢٤٢ ، بتصرف .
(4) سورة طه الآية: ٨٥ .
(5) سورة آل عمران من الآية: ١٣٣ .
(6) مفاتيح الغيب المجلد الحادي عشر ٨٥/٢٢ بتصرف .

وهذا يستلزم منه المسارعة إلى الميعاد فالموعود بما يسر يود لو يركب أجنحة الطير، ولا أسر من مواعدة الله تعالى"[1].

ولولا ما حدث لقومه من بعده بفتنهم ما أنكر الله -ﷻ-عليه هذا التعجل ؛ لذلك كان اعتذار موسى -عليه السلام -بقوله" وعجلت إليك رب لترضى" لعلمه أن العجلة لرضاه -ﷻ-ليست مذمومة ولا تستوجب الإنكار. قال الإمام محمد أبو زهرة :" قال كلمتين تقربا إلى الله ومشيرا بهما إلى رغبته فى ذلك التعجيل وهو أنسا بكلامه معه: الكلمة الأولى هى" إليك" أى عجلتىكانت إليك ، وأنت القريب إلى نفسى آنس بكلامك ، والكلمة الثانية هى"رب" أى القائم على نفسى ومن صنعتنى على عينك فإنى أسارع إلى من صنعنى على عينه -ﷻ-"[2].

فهو متعجلا شوقا إلى الله -ﷻ-ولأنه -ﷻ-عليم بذلك قال له :" وما أعجلك عن قومك ياموسى" "رحمة له وإكراما بهذا القول وتسكينا لقلبه ورقة عليه"[3]. قال ابن كثير :" عجلت إليك رب لترضى لتزداد عنى رضا[4] "وقيل لترضى عنى بمسارعتى إلى الامتثال بأمرك والاعتناء بالوفاء لعهدك"[5].

والخلاصة : أن سيدنا موسى -عليه السلام- قد ترك قومه وتعجل شوقا للقاء ربه ، والعذر له ؛ لأن الإنسان إذا كان ذاهبا للقاء محبوبه فإنه يتعجل شوقا إليه ويود لو ركب أجنحة الطير فما بالنا إذا كان المحبوب هو الله -ﷻ-.

ثالثا : تعجل سيدنا موسى فى إلقاء الألواح ومعاقبة أخيه:

بعد انتهاء مواعدة موسى -عليه السلام- واستئناسه بكلام الله -ﷻ-أخذ الألواح وفيها ما يحتاج إليه بنو اسرائيل موعظة وتفصيلا لكل شيء ، قال تعالى:"**وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين**"[6] وكان موسى -عليه السلام- قد واعد قومه بالعودة إليهم بعد ثلاثين ليلة ولكنه -على غير علم منه - طال غيابه عشر ليال إضافة إلى الثلاثين. قال تعالى :" **وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة**.....الآية"[7].

ترك موسى قومه وقد استخلف عليهم أخاه هارون ؛ ليرعى أحوالهم ويرشدهم إلى الصواب قال تعالى:"**وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين**"[8] انتظر بنو اسرائيل موسى ليأتيهم بالكتاب الذى به هدايتهم وإرشادهم ، فلم يوافهم الميعاد ، فافتتنوا بعبادة العجل من

---

(1) الإنصاف بهامش الزمخشرى ٤٤٣/٢ ، وينظر تفسير المراغى ١٣٨/١٦ .
(2) زهرة التفاسير ٤٧٦٦/٩ .
(3) تفسير القرطبى المجلد السادس ١٥٥/١١ ، ط. الأولى ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨ م عن ابن عباس بتصرف .
(4) تفسير القرآن العظيم لإبن كثير ١٦٢/٣ .
(5) إرشاد العقل السليم لـ أبي السعود ، ٣٤/٥ .
(6) سورة الأعراف ، الآية: ١٤٥ .
(7) سورة الأعراف ، من الآية: ١٤٢ .
(8) سورة الأعراف ، من الآية: ١٤٢ .

دون الله-ﷻ- قال تعالى مخاطبا نبيه موسى عليه السلام:" **قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري**"[1].

فهذه الآية تدل على أن موسى -عليه السلام- كان على علم بافتتان قومه من بعده قبل عودته إليهم وهو على جبل الطور يناجي ربه ، إلا أنه - صلوات الله وسلامه عليه -شغله الأنس والشوق لكلام الله -ﷻ-فلم ينفعل عند إخباره كانفعاله عندما شاهدهم وهم يعبدون العجل من دون الله ، وصدق رسول الله -ﷺ- إذ يقول في هذا الشأن :" يرحم الله موسى ، ليس المعاين كالمخبر ، أخبره ربه إن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح ، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح"[2] قال الإمام القشيري- رحمه الله -:" إن موسى عليه السلام وإن كان سمع من الله فتن قومه ، فإنه لما شاهدهم أثرت فيه المشاهدة بما لم يؤثر فيه السماع ، وإن علم قطعا أنه تأثر بالسماع إلا أن للمعاينة تأثيرا آخر"[3] وقال الدكتور وهبة الزحيلي:"لم يغضب موسى لخبر ربه غضبا مماثلا لما شاهده من الواقع المر ؛ لأنه ليس الخبر كالعيان ، والشاهد يتألم ويتأثر عادة أكثر مما يتأثر السامع أو الغائب ؛ لأن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب"[4].

ولقد جاء التعبير القرآني ليصور لنا مدى شدة انفعال سيدنا موسى -عليه السلام- وغضبه ، إذ أن الأنبياء لا يغضبون إلا إذا انتهكت حرمات مولاهم -ﷻ- ولا إنتهاك أفظع وأشنع من عبادة غيره ، كما بين لنا القرآن ما ترتب على هذا الإنفعال من التعجل بإلقاء الألواح التي بها كلام الله -ﷻ- وجر شعر رأس أخيه قبل معرفة وجه الحق منه وقبل السماع لعذره ، قال تعالى:" **ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين**"[5]. ولقد عبر القرآن الكريم عن انفعال موسى عليه السلام بقوله" غضبان أسفا"، والأسف كما قال ابن منظور : "المبالغة في الحزن والغضب ، وأسف أسفا فهو آسف وأسفان ، أسف وأسوف ، وأسيف والجمع أسفاء ، وقد أسف على ما فاته وتأسف أي تلهف وأسف عليه أسفا أي غضب وآسفه أي أغضبه"[6].

وقال الراغب: "الأسف الحزن والغضب معا ، وقد يقال لكل واحد منهما على انفراد ، وحقيقته ثوران دم القلب والشهوة للإنتقام ، فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضبا ، ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزنا ؛ ولذلك سئل ابن عباس عن الحزن والغضب فقال : مخرجهما واحد واللفظ مختلف ، فمن نازع من يقوى عليه أظهره غيظا ، ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره حزنا وجزعا"[7].

---

[1] سورة طه ، الآية: ٨٥ .
[2] أخرجه الحاكم في مستدركه ، كتاب التفسير ، تفسير سورة طه ٣٨٠/٢ ، وقال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه والحديث مروى عن ابن عباس رضي الله عنه .
[3] لطائف الإشارات ٥٧٣/١ .
[4] التفسير المنير ١٠٣/٩ .
[5] سورة الأعراف الآية: ١٥٠ .
[6] لسان العرب ٧٩/١ ،باب الهمزة، مادة أسف.
[7] المفردات للراغب صـ ١٧ ، كتاب الألف.

ومن خلال تعريف الراغب يتضح لنا أن الحزن من الغضب والغضب من الحزن فإذا ضاق بمن يقوى عليه أظهره فصار غضبا وانفعالا ، أما إذا ضاق بمن لا يقوى عليه كتم هذا فى نفسه وكبته بين وجدانه فيصير حينئذ حزنا وجزعا ؛ ولذلك جاء التعبير القرآنى هنا باللفظين معا فعبر أولا بلفظ غضبان ؛ لأن غضبه على رعاياه وقومه وهو المرسل إليهم وقائدهم فهو يقوى عليه ، ثم جاء التعبير الثانى بلفظ" آسفا" أى حزينا كاتما حزنه بين وجدانه لأن الله فتنهم كما عبر عنه القرآن بقوله" **فإنا قد فتنا قومك**"[1] قال الواحدي -رحمه الله-:" أسفا أى حزينا لأن الله فتنهم[2] والله -ﷻ-هو القوى الذى يقهر بجانبه الأقوياء ، كما أنه عليه السلام كان نادما على تركه لهم ، لأنه لو كان لبث فيهم لاستطاع ردهم عن هذا الشرك كما سبق أن ردهم إلى صوابهم عندما طلبوا منه أن يجعل لهم إلها حينما مروا على قوم يعبدون الأصنام ، فهو حزينا ونادما لما حل بهم وما سيحل بهم من غضب الله وعقابه ، وعند هذا لا يملك لهم حولا ولا قوة إلا بالله -ﷻ-، قال ابن عاشور فى معنى الآيات :"رجع موسى غضبان من عصيان قومه حزينا على فساد أحوالهم"[3].

وللإمام الشعراوى -رحمه الله- كلام بليغ دقيق فى هذا إذ يقول:"الغضب والأسف عملية نفسية فيها حزن ، وسموها" المواجيد النفسية" أى الشيء الذى يجده الإنسان فى نفسه وقد يعبر عن هذه المواجيد بانفعالات نزوعية ، ولذلك تجد فارقا بين من يحزن ويكبت فى نفسه ، وبين من يغضب ، فمن يغضب تنتفخ أوداجه ويحمر وجهه ويستمر هياجه وتبرق عيناه بالشر ، وتندفع يداه وهذا اسمه غضبان ، وصار موسى إلى الحالتين الإثنتين وقدم الغضب لأنه رسول له منهجه ولا يكفى فى مثل هذا الأمر الحزن فقط بل لا بد أن يكون هناك الغضب نتيجة هياج الجوارح"[4].

وقد ترتب على هذا الانفعال اللاشعورى أمران تعجل فيهما موسى -عليه السلام- وهما: إلقاؤه الألواح ، وأخذه برأس أخيه ، إذ أنه عليه السلام لو تريث قليلا ما ألقى الألواح ، التى بها كلام الله -ﷻ- ولعرف وجه الحق من أخيه صلوات الله عليهما وسلامه .

أما الأمر الأول : فقد عبر عنه القرآن العظيم بقوله" وألقى الألواح" وهى التى بها التوراة وفيها هداية وصلاح بنى اسرائيل ، وطرح موسى إياها إنما هو من فرط الغضب والدهشة ، عندما شاهد قومه المبعوث فيهم يبدلون ويغيرون دين الله ، بل ويعبدون من دونه عجلا لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، قال الإمام الزمخشرى وجمع من المفسرين :" طرحها لما لحقه من فرط الدهشة وشدة الغضب عند استماعه حديث العجل غضبا لله وحمية لدينه"[5]،وهذا يوضح لنا أن موسى -عليه السلام- لم يلق الألواح استهانة بكلام الله-وحاشاه ذلك- فهذا لا يليق بنبى الله موسى لاسيما وقد ذهب للمواعدة متعجلا مشتاقا لهذا الكتاب

---

[1] سورة طه من الآية: ٨٥ .

[2] الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لـ أبي الحسن الواحدى، ٤١٤/١ ،دار القلم دمشق ،١٤١٥ه ،الأولى ، تحقيق/ صفوان عدنان.

[3] التحرير والتنوير لابن عاشور ١١٤/٩ .

[4] تفسير الشعراوى ٧/ ٤٣٦٣ أخبار اليوم ، قطاع الثقافة.

[5] الكشاف ١٥٢/٢ ، وينظر روح المعانى ٦٦/٩ ، إرشاد العقل السليم لـ أبى السعود ٢٧٤/٣ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد الرابع ١٨٣/٧ .

الذى به الصلاح والهداية لقومه ، وإنما ألقاه -عليه السلام- لما اعتراه من شدة الغضب ، ومن غير شعور منه ، تأثر بما رأى ففعل ما فعل ولم يدر ما صنع ، قال الإمام الرازى -رحمه الله- :" لما كانت تلك الألواح أعظم معجزة ثم ألقاها ، دل ذلك على شدة الغضب ؛ لأن المرء لا يقدم على مثل العمل إلا عند حصول الغضب المدهش"[١]،وكان -صلوات الله عليه وسلامه- سجيته وطبيعته انفعالية فقد كان سريع الغضب إلا أنه كان سريع العودة إلى الصواب أيضا ، وهذا ما قاله ابن العربى :" كان موسى من أعظم الناس غضبا لكنه كان سريع الفيئة فتلك بتلك"[٢]. والفيئة كما عرفها المناوى:" الرجوع إلى حالة محمودة"[٣] قال ابن منظور:" فاء من غضبه رجع وإنه لسريع الفيئة والفيئة أى الرجوع"[٤]. وقال الدكتور وهبة الزحيلى :"تختلف أحوال الناس وطبائعهم فى سياسة الآخرين والاحتكاك بهم ، فمنهم الحاد الطباع السريع الانفعال كموسى -عليه السلام- الذى غضب للحق وهو محق فيما فعل ، ومتوقع منه كل ما فعل ، ومنهم الهادىء الطبع اللين العريكة الحليم مثل هارون الذى لم يأل جهده فى الإنكار على قومه ، ولكنهم لم يرعووا لنصحه وهموا بقتله ، وكل هذه أحوال نفسية فطرية لا سلطان للإنسان عليها ، ومن المعروف أن الأمور الجبلية من غضب وسرور ونحوهما لسنا مكلفين بها"[٥].

وسرعة غضب موسى كما أوضحنا إذا انتهكت حرمات الله -ﷻ- لذلك لاحرج عليه ولا مؤاخذة فيما فعل فما فعله إلا غضبا لله -ﷻ-.

يقول الدكتور/ أبو النور الحديدى :"إن العقل يقتضى بأنه لايستهين رسول بكلام الله ، وهو الذى يدعو إلى تعظيمه ، والقيام بحقه ، وينبغى أن يفهم إلقاء موسى الألواح على أنه لما رأى من قومه ما رأى ، غضب غضبا شديدا ؛ حمية للدين ، وغيرة من الشرك برب العالمين ، فعجل بوضع الألواح لتفرغ يده فيأخذ برأس أخيه فعبر عن ذلك الوضع بالإلقاء تفظيعا لفعل قومه الذى كان سببا له ، وليس فى وضع الألواح إهانة لكلام الله"[٦]. وأما ماقيل بأن الألواح تكسرت فقد قال ابن عاشور ردا على هذا:" ليس فى القرآن ما يدل على هذا سوى التعبير بالإلقاء الذى هو الرمى ، وما روى من أن الألواح كانت من حجر يقتضى أنها اعتراها انكسار ، ولكن هذا الانكسار لا يذهب ما احتوت عليه من الكتابة ، وأما ما روى أنها لما تكسرت ذهب ستة أسباعها ، أو ذهب تفصيلها وبقيت موعظتها فهو من وضع القصاصين والله تعالى يقول :" **ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون**[٧]"[٨].

---

[١] مفاتيح الغيب المجلد الثامن ١١/١٥ .
[٢] أحكام القرآن لابن العربى ٧٩٣/٢ ، ط. دار المعرفة بيروت .
[٣] التوقيف على مهمات التعاريف لـ محمد عبد الرؤوف المناوي صـ٥٦٨، فصل الياء،دار الفكر المعاصر بيروت لبنان ،دار الفكر دمشق سورية ،الأولى ١٤١٠هـ-١٩٩٠م،تحقيق د/محمد رضوان الداية.
[٤] لسان العرب ٣٤٩٦/٥ ، باب الفاء مادة فيأ .
[٥] التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى ١٠٣/٩ .
[٦] عصمة الأنبياء د/ أبو النوزر الحديدى صـ ٣٤١ .
[٧]سورة الأعراف ، الآية:١٥٣
[٨] التحرير والتنوير ١١٦/٩ .

قال الدكتور/أبو النور:"وعلى القول بأن بعض الألواح قد انكسر فلم يقصد موسى عليه السلام أن تنكسر ولا ظن ترتبه على ما فعل ، وليس فى الأمر إلا العجلة فى الوضع الناشئة من الغيرة لله تعالى"[١].

ويستخلص مما سبق بيانه:أن موسى تعجل فألقى الألواح ؛ وذلك غضبا لله تعالى وغيرة على دينه وهذا هو الأصح واللائق بنبى الله موسى -عليه السلام- وأما ماجاء من أن موسى عليه السلام إنما ألقى الألواح لما رأى فيها من فضيلة أمة محمد -ﷺ- دون أمته [٢] فهذا لا يلتفت إليه ولا يليق بنبى الله موسى -عليه السلام -.

قال الإمام القرطبى رحمه الله :" لا يصح أن يقال: إن إلقاءه الألواح إنما كان لما رأى فيها من فضيلة أمة محمد -ﷺ- ولم يكن ذلك لأمته ، وهذا قول ردىء لا ينبغى أن يضاف إلى موسى عليه الصلاة والسلام"[٣].

-**الأمر الثانى المترتب على غضبه** :هو تعجله بمعاقبة أخيه قبل السماع لقوله أو لعذره وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله :"وأخذ برأس أخيه يجره إليه" قال الإمام القرطبى :" أخذ بلحيته وذوائبه وكان هارون أكبر من موسى -صلوات الله وسلامه عليهما- بثلاث سنين وأحب إلى بنى اسرائيل من موسى عليه السلام ؛ لأنه كان لين الغضب"[٤].

وقيل المعنى أخذ بشعر رأسه قاله أبو السعود[٥] والجركما قال ابن منظور:" الجذب جره يجره جرا ، وجررت الجبل وغيره أجره جرا ، وانجر الشىء انجذب"[٦] وفى المصباح "جررت الحبل ونحوه جرا : سحبته فانجر وجررته مبالغة وتكثيرا"[٧].**ولقد ذكر العلماء فى هذه الأخذة أربع تأويلات :**

"**الأول** : أن ذلك كان متعارفا عندهم ، كما كانت العرب تفعله من قبض الرجل على لحية أخيه وصاحبه إكراما وتعظيما ، فلم يكن ذلك عن طريق الإذلال .

الثانى : أن ذلك إنما كان ليسر إليه نزول الألواح عليه ؛ لأنها نزلت عليه فى هذه المناجاة وأراد أن يخفيها عن بنى اسرائيل قبل التوراة ، فقال له هارون : لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى لئلا يشتبه سراره على بنى اسرائيل بإذلاله .

الثالث : إنما فعل ذلك ؛ لأنه وقع فى نفسه أن هارون مائل مع بنى اسرائيل فيما فعلوه من أمر العجل ومثل هذا لا يجوز على الأنبياء .

الرابع : ضم إليه أخاه ليعلم ما لديه ، فكره ذلك هارون لئلا يظن بنو اسرائيل أنه أهانه"[٨].

---

[١] عصمة الأنبياء د/ أبو النور الحديدى صـ ٣٤١ ، ٣٤٢ .
[٢] وهى رواية عن قتادة ذكرها الطبرى فى جامع البيان ٦٥/٩ ، ٦٦ ، و تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٥٠/٢ .
[٣] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد الرابع ١٨٣/٧ .
[٤] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد الرابع ١٨٤/٧ .
[٥] إرشاد العقل السليم لأبى السعود ٢٧٤/٣ .
[٦] لسان العرب ٥٩١/١ ، باب الجيم مادة جرر .
[٧] المصباح المنير ٩٦/١ كتاب الجيم .
[٨] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد الرابع ١٨٤/٧ .

والقول الأولى بالقبول والاعتبار أن موسى عليه السلام لشدة غضبه أخذ أخاه هذه الأخذة القوية ؛ لظنه أنه قد وقع منه تقصير أو مخالفة لما أمره به بقوله"**اخلفني في قومي وأصلح**"[1] لذلك قال له وهو يعاتبه"**ألا تتبعن أفعصيت أمري**"[2] فكان من هارون أن دفع عن نفسه هذا فبين لموسى عذره ، مستعطفا إياه بألا يتعجل بلومه وتعنيفه واتهامه بالتقصير فى واجبه نحو الله -ﷻ- موضحا له أنه قد زجرهم وأنكر عليهم عبادة العجل ونصحهم إلا أنهم استضعفوه وقهروه لأنه فرد واحد ضعيف ، لذلك لم يلتفتوا إلى كلامه ، بل كادوا يقتلونه ، قال تعالى على لسان هارون:"**إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين**[3] وكأنه -عليه السلام- يقول لموسى "قد توالت على المحن فذرنى وما أنا فيه ولا تزد فى بلائى ، خلفتنى فيهم فلم يستنصحونى وتلك على شديدة ، ولقيت بعدك منهم ما ساءنى ولقد علمت أنها كانت على عظيمة كبيرة ، وحين رجعت أخذت فى عتابى وجر رأسى وقصدت ضربى وكنت أود تسليتى وتعزيتى ، فرفقا بى ولا تشمت بى الأعداء ولا تضاعف على البلاء"[4]. قال الإمام أبو السعود :" وإنما قال ذلك لإزاحة توهم التقصير فى حقه والمعنى: بذلت جهدى فى كفهم حتى قهرونى واستضعفونى وقاربوا قتلى"[5].

"فهارون لم يقصر فى واجبه ولم يأل جهده فى الإنكار عليهم ، فلقد عارضهم معارضة شديدة إلا أنه سلم خشية القتل وهو ما تفيده عبارة" كادوا يقتلوننى" قاله ابن عاشور فى التحرير والتنوير[6] ، كما أنه -صلوات الله وسلامه عليه- قد اعتذر بعذر آخر وهو قوله فى سورة طه :"**إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي**"[7].

قال الإمام الزمخشرى فى تفسير هذه الآية :" لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا وتفانوا فاستأنيتك أن تكون أنت المدارك بنفسك المتلافى برأيك ، وخشيت عتابك على إطراح ما وصيتنى به من ضم النشر ، وحفظ الدهماء ، ولم يكن لى بد من رقبة وصيتك ، والعمل على موجبها"[8]،وفى التسهيل :" لو قاتلت من عبد العجل منهم بمن لم يعبده ، لقلت: فرقت بين جماعتهم ، وأدخلت العداوة بينهم وهذا على أن يكون معنى قوله" ألا تتبعن" فى الزجر والقتال ، أو المعنى لو اتبعتك فى المشى إلى الطور لتبعنى بعضهم دون بعض فتفرقت جماعتهم ، وهذا على أن يكون معنى" تتبعنى" فى المشى إلى الطور"[9].

تلك أعذار هارون -عليه الصلاة والسلام- "وعندما سمعها موسى عليه السلام "تنبه لأمرين : **الأول** أنه كيف يلقى الألواح وفيها المنهج؟ **والثانى** أنه كيف يأخذ أخاه هذه الأخذة قبل أن يتبين وجه الحق

---

[1] سورة الأعراف ، من الآية: ١٤٢ .
[2] سورة طه ، الآية: ٩٣ .
[3] سورة الأعراف ، من الآية: ١٥٠ .
[4] لطائف الإشارات ٥٧٣/١ ، بتصرف .
[5] إرشاد العقل السليم لأبى السعود ٢٧٤/٣ .
[6] التحرير والتنوير ١١٧/٩ ، بتصرف .
[7] سورة طه من الآية: ٩٤ .
[8] الكشاف ٨٤/٣-٨٥ .
[9] التسهيل لعلوم التنزيل ١٨/٣ .

منه ؟"[1]،وعندما تنبه موسى -عليه السلام- لهذين الأمرين ندم على ما بدر منه من قول أو فعل يخالف منطق الصواب والحق ، فطلب من الله المغفرة له ولأخيه فقال:"**رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين**"[2].

قال الإمام الرازى :" طلب المغفرة له فيما أقدم عليه من هذا الغضب والحدة ، وطلب المغفرة لأخيه فى تركه التشديد العظيم على عبدة العجل" [3] وقال الإمام السعدى :" ندم موسى -عليه السلام- على ما استعجل من صنعه بأخيه قبل أن يعلم براءته مما ظنه فيه من التقصير"[4] وفى روح المعانى:"اغفر لى ما فعلت بأخى قبل جلية الحال وحسنات الأبرار سيئات المقربين"[5]. و"هكذا استغفر موسى -عليه السلام- من هذا الفعل ؛ "لأن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم ، ويندمون على مخالفة الأولى ، ويستغفرون منه ، وكان الأولى بموسى -عليه الصلاة والسلام- أن لا يروع أخاه هارون ، وأن لا يظن به التقصير ولكن لشدة الغضب لله تعالى على قومه فى اتخاذهم العجل جعلته يفعل هذا"[6].

رابعا : تعجل سيدنا موسى بالانكار فى رحلته مع الخضر (عليهما السلام): من خلال ما سبق من الأحداث التى تعجل فيها موسى -عليه السلام- اتضحت لنا السمة الغالبة على شخصيته عليه -عليه

---

[1] تفسير الشعراوى ٧/ ٤٣٦٦ .
[2] سورة الأعراف ، من الآية: ١٥١ .
[3] مفاتيح الغيب المجلد الثامن ١١/١٥ ، بتصرف .
[4] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر السعدي ،صـ ٣٠٤،مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م ،المحقق ابن عثيمين .
[5] روح المعانى ٦٨/٩ .
[6] عصمة الأنبياء للدكتور أبو النور الحديدى صـ ٣٤٤ .
[7] ثبت فى الصحيح أن سبب تسميته بهذا الاسم "ما روى عن أبى هريرة -رضي الله عنه- أن النبى -ﷺ- قال : إنما سمى الخضر؛ لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز من خلفه خضراء "[صحيح البخارى -كتاب أحاديث الأنبياء -باب حديث الخضر مع موسى عليهما الصلاة والسلام ، ١٠٥٥/٢ ، رقم الحديث (٣٤٠٢) ، رقم الباب ٢٧] والفروة كما فى النهاية الأرض اليابسة وقيل الهشيم اليابس من النبات [النهاية فى غريب الحديث والأثرلمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ، ٤٤١/٣ باب الفاء مع الراء المكتبة العلمية بيروت ،تحقيق طاهر أحمد الزاوي،محمود محمد الطناحي] أما اسم الخضر -عليه السلام- فلا يوجد دليل صحيح يبين اسمه ؛ لذلك وردت الأقوال المتضاربة فى اسمه ونسبه منها :
الأول :قيل هو ابن آدم من صلبه .
الثانى : أنه ابن قابيل بن آدم .
الثالث : جاء عن وهب بن منبه أنه بليان بن ملكان بن قالع بن شالخ بن عابدين أرفخشد بن سام بن نوح .
الرابع : جاء عن اسماعيل بن أبى أويس : أنه المعمر بن مالك بن عبيد الله بن نصر بن الأزد وقيل اسمه عامر.
الخامس : هو ابن عمائيل بن النور بن العيص بن اسحاق .
السادس : أنه من سبط هارون أخى موسى ، وهو بعيد .
السابع : أنه بنت فرعون وقيل ابن فرعون لصلبه .
الثامن : أنه اليسع حكى عن مقاتل وهو بعيد أيضا .
التاسع : أنه من ولد فارس .
العاشر : أنه من ولد بعض من كان أمن بابراهيم وهاجر معه من أرض بابل ، حكاه إبن جرير الطبرى فى تاريخه ٣٦٥/١ ط. دار المعارف ، وقيل كان أبوه فارسيا وأمه رومية [الزهر النضر فى أخبار الخضر لابن حجر صـ ٥٨-٦٣ باختصار وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٦/١ واختار الطبرى فى تاريخه بأنه كان فى أيام أفريدون وذى القرنين الأكبر وقبل موسى بن عمران وهو العالم الذى أمره الله تبارك وتعالى بطلبه إذ ظن أنه لا أحد فى الأرض أعلم منه .[تاريخ الطبرى تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، ٣٦٦/١ ،دار المعارف، الرابعة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم] قال الشنقيطى فى أضواء البيان بعد سرد هذه الأقوال: " والله أعلم بحقيقة الواقع(أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين بن محمد المختار الجنكي الشنقيطي ،١٧٨/٤ عالم الكتب بيروت) والرأى عندى أنه لافائدة من معرفة

السلام- وهى انفعالية ، سريعة الغضب ، إذا انتهكت حرمات الله -ﷻ- وفى هذه الرحلة المباركة مع الخضر -عليه السلام- تجلت هذه السمة لا سيما وقد وقعت من الخضر -عليه السلام- أمور مستغربة عظيمة الوقع على موسى -عليه السلام- لذلك بادر بالسؤال عنها وإنكارها ، وإنما عد ذلك منه -عليه السلام- تعجلا ؛ لأن الخضر -عليه السلام- كان قد شارطه شرطا ، وأخذ عليه عهدا ، إن أراد صحبته ليتعلم منه العلم الذى أعطاه الله إياه ؛ ألا يسأله عن شيء حتى يوضحه له ، ومع موافقة موسى -عليه السلام- على ألا يتسرع بالإنكار عليه عندما يقوم ببعض الأمور التى يبدو فى ظاهرها المنكر قبل أن يسمع منه حقيقة ما يقوم به ، لم يتمالك نفسه وغضبه عندما شاهد هذه الأمور عيانا ، وكان على موسى -عليه السلام- أن يتريث حتى يوضح له الخضر -عليه السلام- أسباب وحقائق ما يقوم به ؛ حتى يحصل على أكبر قدر من العلم من ذلك الرجل الصالح ، الأمر الذى جعل الخضر يذكره بعدم التسرع بعد كل إنكار كان يقوم به موسى -عليه السلام - مذكرا له بالشرط الذى اشترطه عليه فى البداية حتى قرر الخضر الفراق ؛ لأن موسى -عليه السلام- لم يلتزم بالشرط فحرم بسبب تسرعه علما كثيرا ، ولقد وردت الآيات القرآنية - فى سورة الكهف - توضح لنا الأمور التى تعجل موسى بإنكارها على معلمه ، وما فاته بسبب ذلك من الخير الكثير ، والعلم الغزير كان يمكنه أن يتعلمها ونتعلمها نحن من بعده ، فلو لم يعجل لرأى ورأينا العجب ، قال تعالى فى سورة الكهف بعد رحلة موسى -عليه السلام- الشاقة فى سبيل الوصول إلى هذا العبد الصالح:"**فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما {} قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا {} قال إنك لن تستطيع معي صبرا {} وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا {} قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا {} قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا {} فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا {} قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا {٧٢} قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا {} فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا {} قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا {} قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا {} فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا {} قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا**"[1]

كما بينت السنة النبوية الشريفة هذه القصة والسبب الذى من أجله رحل موسى -عليه السلام- فى طلب الخضر -عليه السلام- فعن أبى بن كعب([2])عن النبى -ﷺ-" أن موسى قام خطيبا فى بنى اسرائيل فسئل أى الناس أعلم ؟ قال :أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فقال له : بلى لى عبد بمجمع

بالقرآن لمحمد الأمين بن محمد المختار الجنكي الشنقيطي ،١٧٨/٤ عالم الكتب بيروت) والرأى عندى أنه لافائدة من معرفة اسمه طالما أن القرآن الكريم لم يصرح بذلك ، ولو كان ذلك يمثل أمرا ذا بال ما ترك القرآن الكريم الإشارة إليه فلا فائدة إذا من الخوض فى اسمه .

(1) سورة الكهف ، الآيات :٦٥:٧٧.

(2) أبى بن كعب بن قيس بن عبيد بن معاوية بن عمر بن مالك الأنصارى ، سيد القراء ، كان من أصحاب العقبة الثانية ، شهد بدرا والمشاهد كلها ، مات سنة عشرين أو تسع وعشرين ، وقيل غير ذلك(الإصابة ٢٧/١).

البحرين[1]هو أعلم منك ، قال: أى ربى ومن لى به ؟ قال:تأخذ حوتا فتجعله فى مكتل[2] ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون[3] حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءسيهما فرقد موسى واضطرب الحوت فخرج فسقط فى البحر، فاتخذ سبيله فى البحر سربا [4]فأمسك عن الحوت جرية الماء فصار مثل الطاق[5] فانطلقا يمشيان بقية ليلتهما ويومهما ، حتى إذا كان من الغد قال لفتاه: آتناغذاءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا[6] ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيث أمره الله ، قال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى قد نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا ، فكان للحوت سربا ولهما عجبا ، قال له موسى: ذلك ما كنا نبغى ، فارتدا على آثارهما قصصا ، رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى[7] بثوب فسلم موسى فرد عليه فقال : وأنى[8] بأرضك السلام ؟ قال : أنا موسى ، قال : موسى بنى اسرائيل ؟ قال : نعم أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا ، قال : يا موسى أنا على علم علمنيه الله أنت لا تعلمه وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه ، قال : أهل أتبعك ؟ قال : إنك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا - إلى قوله - إمرا ، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهم سفينة كلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول[9] فلما ركبا فى السفينة جاء عصفور فنقر فى البحر نقرة أو نقرتين ، قال له الخضر: ياموسى ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا مثل مانقص هذا العصفور بمنقاره من البحر ، إذ أخذ الفأس فنزع لوحا قال : فلم يفجأ موسى إلا وقد قلع لوحا بالقدوم ، فقال له موسى : ما صنعت ؟ قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا ، قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ؟ قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا ، فكانت الأولى من موسى نسيانا ، فلما خرجوا من البحر مروا بغلام يلعب مع الصبيان ، فأخذ الخضر برأسه فقلعه بيده فقال له موسى : أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا ، قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ؟ قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا ، فانطلقا حتى إذا أتيا قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جدارا

---

(1) اختلف فى مجمع البحرين فقيل بحر فارس والروم وقيل هما الكر والرس حيث يصبان فى البحر وقيل هما بحر الأردن والقلزم وقيل هما بطنجة وقيل بحر أرمينية وقيل بإفريقية [فتح البارى ٢٦٣/٨] .

(2) المكتل بكسر الميم الزبيل الكبير قيل أنه يسع خمسة عشر صاعا ويجمع على مكاتل [النهاية فى غريب الحديث والأثر لإبن الأثير ١٥٠/٤ باب الكاف مع التاء] قال الرافعى المكتل بكسر الميم الزنبيل وهو ما يعمل من الخوص يحمل فيه التمر وغيره [المصباح المنير ٥٢٥/٢ كتاب الكاف] .

(3) هو يوشع بن نون بن أفرائم بن يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم خليل الرحمن عليهم السلام وقد كان نبى بنى اسرائيل بعد موسى وهو الذى خرج ببنى اسرائيل من التيه ودخل بهم بيت المقدس بعد حصار ومقاتلة [البداية والنهاية لابن كثير ٢٨١/٦]

(4) السرب بالتحريك المسلك فى خفية [النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣٥٦/٢ باب السين مع الراء] .

(5) قال النووى الطاق عقد البناء وجمعه طيقان وأطواق وهو الأزج وما عقد أعلاه من البناء وبقى ماتحته خاليا [صحيح مسلم بشرح النووى ١٣٨/١٥].

(6) النصب : الإعياء من العناء والفعل نصب الرجل بالكسر نصبا أعيا وتعب [لسان العرب ٤٤٣٤/٦ باب النون مادة نصب] قال النووى النصب التعب ولحقه النصب والجوع ليطلب الغذاء فيتذكر به نسيان الحوت [صحيح مسلم بشرح النووى ١٣٨/١٥].

(7) مغطى [صحيح مسلم بشرح النووى ١٣٩/١٥] .

(8) أى من أين السلام فى هذه الأرض التى لا يعرف فيها السلام [صحيح مسلم بشرح النووى ١٣٩/١٥ ، ١٤٠].

(9) بفتح النون وإسكان الواو أى بغير أجر ، والنول والنوال العطاء [صحيح مسلم بشرح النووى ١٤٠/١٥].

يريد أن ينقض مائلا – أومأ بيده هكذا – كأنه يمسح شيئا إلى فوق قال : قوم آتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا عمدت إلى حائطهم لو شئت لاتخذت عليه أجرا ، قال : هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ، قال النبى –ﷺ–" وددنا أن موسى كان صبر فقص الله علينا من خبرهما ، قال سفيان قال النبى –ﷺ–" يرحم الله موسى لو كان صبر لقص الله علينا من أمرهما"[1] ، ووقع فى رواية مسلم" رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة[2]"[3].

وبعد عرض الآيات القرآنية والحديث النبوى الشريف نستطيع أن نلمح مضمون هذه القصة العجيبة ومغزاها ، وهو أن الله –سبحانه وتعالى– أراد أن يوقف البشر على أن علمه تعالى واسع لا نهاية له ، وأن البشر مهما أوتوا من علم فما أوتوا من العلم إلا قليلا ومصداق ذلك قوله تعالى:"**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**"[4] وكذلك قوله تبارك وتعالى:" **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا**"[5] وأيضا قوله –عز من قائل–:" **ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم**"[6]. و"كان هذا البيان والتأديب ممثلا فى شخصية سيدنا موسى –عليه السلام– حينما ظن أنه لا يوجد على ظهر الأرض من هو أعلم منه ، عند ذلك أمره الله بالسير والاجتماع بعبد صالح أدنى منه فى المرتبة ليتعلم منه ، فاستجاب سيدنا موسى –عليه السلام– لأمر ربه وقام برحلته المباركة حيث اجتمع بهذا العبد الصالح ، وطلب منه الإذن بالصحبة كما طلب منه الاستفادة من علمه ، وكان ما كان مما قصه الله تعالى علينا فى القرآن الكريم"[7].

فالقصة من عجائب الأحداث فى تاريخ الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– يقول الدكتور/ محمد الفقى :" هذه القصة هى القصة الثالثة من القصص التى جاء ذكرها فى سورة الكهف ، أما القصة الأولى فهى قصة أصحاب الكهف ، والثانية هى قصة كفار قريش الذين طلبوا من رسول الله طرد من آمنوا وبما جاء على لسان نبيه –ﷺ– من بينات الفرقان وآيات الهدى من الفقراء .. وهى من عجائب الأحداث فى تاريخ الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام"[8].

وما يعنينا فى هذه القصة العجيبة هو تعجل موسى بالإنكار لما رآه من أمور مستغربة مخالفة للعادة والأحكام الشرعية التى تعلمها ، وهذا ما بدا له ، بينما هى فى باطنها رحمة من الله –ﷻ– وما ذلك إلا لأن الله قد علمه العلوم الظاهرة ، بينما خص الخضر –عليه السلام– بالعلوم الباطنة وهو علم الله

---

(1) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام ١٠٥٣/٢ : ١٠٥٥ رقم الحديث (٣٤٠١) باب رقم ٢٧ ، كما أخرجه فى كتاب التفسير باب " وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا " وباب " فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا " وباب " فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غذاءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا " وباب " قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت " ١٤٦٤/٣ : ١٤٧٠ ، رقم الحديث (٤٧٢٥ ، ٤٧٢٦ ، ٤٧٢٧)، كما أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل باب من فضائل الخضر عليه السلام ١٨٤٧/٤ : ١٨٥٣ رقم الحديث (٢٣٨٠) .

(2) بفتح الذال المعجمة أى استحياء لتكرار مخالفته ، وقيل ملامة ، والأول هو المشهور [صحيح مسلم بشرح النووى ١٤٤/١٥ ، ١٤٥]

(3) أخرجه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب من فضائل الخضر عليه السلام ١٨٥١/٤ .

(4) سورة الإسراء ، من الآية: ٨٥ .

(5) سورة الكهف ، الآية: ١٠٩ .

(6) سورة لقمان ، الآية: ٢٧ .

(7) مجلة كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط العدد التاسع ، ١٤١١ هـ ، ١٩٩١ م صـ ١٩٤-١٩٥ مطبعة الأمانة.

(8) قصص الأنبياء أحداثها وعبرها لـ محمد الفقى صـ ٣١٩ ، ط. الأولى شوال ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م .

يصطفى به من يشاء من عباده ، قال تعالى:"**فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما**"[1].

ونلاحظ أن السياق القرآنى لم يذكر اسم الخضر-عليه السلام- وإنما وسمه فقط بالعبودية ، لذلك وضحته السنة النبوية الشريفة وكشفت الستار عنه ، فقد روى عن أبى بن كعب أنه قال:" سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: بينما موسى فى ملأ من بنى اسرائيل إذ جاءه رجل فقال له : أتعلم أحدا أعلم منك ؟ قال موسى : لا . فأوحى الله -ﷻ- إليه بلى عبدنا خضر ، فسأل السبيل إلى لقيه فجعل له الحوت آية ، وقيل له إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه ، فكان موسى يتبع أثر الحوت فى البحر فقال فتى موسى له : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى قد نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، قال موسى : ذلك ما كنا نبغى فارتدا على آثارهما قصصا ، فوجدا خضرا فكان من شأنهما ما قص الله من كتابه"[2]. فهذا الحديث النبوى قد صرح به بقوله" فوجد خضرا" وقوله" بلى عبدنا خضر" .

يقول أحمد بهجت فى كتابه" أنبياء الله": "إن موسى كليم الله -ﷻ- وأحد أولى العزم من الرسل ، وصاحب معجزات العصا واليد ، والنبى الذى أنزلت عليه التوراة دون واسطة ، وإنما كلمه الله تكليما .. هذا النبى العظيم يتحول فى القصة إلى طالب علم متواضع يحتمل أستاذه ليتعلم .. ومن يكون معلمه؟ غير هذا العبد الذى يتجاوز السياق القرآنى اسمه وإن حدثتنا السنة المطهرة أنه هو الخضر عليه السلام"[3]. وقوله" آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما" لخير دليل على أن علم موسى كان علما بالأمور الظاهرة علمه الله إياها ، وعلم الخضر كان علما ببواطن الأمور اصطفاه الله بعلمها ، ولقد أجمع المفسرون على أن المراد بالعلم هو علم الغيب الذى اختصه الله بالاطلاع عليه"[4] قال ابن عطية رحمه الله :" كان علم الخضر معرفة بواطن قد أوحيت إليه ، لا تعطى ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها ، وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم"[5]. لذلك كان عليه الصلاة والسلام معذورا فى مبادرته بالانكار على الخضر حيث اصطدم العلم الظاهرى بالعلم الباطنى ، وخفيت على موسى الحكمة والمصلحة المستترة وراء هذه الأفعال المثيرة للدهشة ؛ لذلك بادر بالانكار والسؤال.

وقبل الحديث عن الأمور التى تعجل موسى بإنكارها يجب التنويه إلى أدبه -عليه السلام- مع معلمه وكيف كان -ﷺ- شديد الرغبة فى الاستزادة من علمه الباطنى ، وأما ما وقع منه -عليه السلام- من إنكار على أستاذه استفزغضبه فأدت إلى الفراق ، إنما هو أمر خارج عن الطاقة البشرية ، فلقد صدر من الخضر أفعال بعضها قد يصل إلى مرتبة الجرائم والكوارث لا يحتمل رجل صالح عالم بالشريعة السكوت عليها ، فما بالنا برسول من أولى العزم شديد الغيرة والحمية على دينه ، وبعضها بلا معنى تثير

---

(1) سورة الكهف الآية: ٦٥ .

(2) أخرجه البخارى كتاب العلم باب الخروج فى طلب العلم ٥٣/١ ، رقم الباب ١٩ ، رقم الحديث (٧٨) ، كما أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل ، فضائل الخضر عليه السلام ١٨٥٣/٤ .

(3) أنبياء الله لأحمد بهجت صـ ٢٤٩ ، ط ، دار الشروق ، دار الريان للتراث ، القاهرة .

(4) انظر الكشاف ٦٨٥/٢ ،إرشاد العقل السليم لأبى السعود ٢٣٤/٥ ، وتفسير الواحدى ٦٦٧/٢ ، وروح المعانى ٣٣٠/٥ .

(5) المحرر الوجيز ٥٢٩/٣ .

الدهشة لدى موسى فتحمله على المعارضة ، ويجدر بنا أيضا الحديث عن الشرط الذى شارطه الخضر على موسى ليصحبه معه ، وموافقة موسى عليه .

أدب موسى مع معلمه عليه السلام :

قال تعالى على لسان موسى وهو يسأل أستاذه بلطف وأدب :"**قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا** "[1].

قال الإمام القرطبى رحمه الله:" فيه مسألتان **الأولى** : [قوله تعالى :"قال له موسى هل أتبعك" هذا سؤال الملاطف والمخاطب المستنزل المبالغ فى حسن الأدب ، والمعنى هل يتفق معك ويخف عليك ؟] **والثانية** : [فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب ، ولا يظن أن فى تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه ، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول ، والفضل لمن فضله الله ، فالخضر وإن كان وليا فموسى أفضل منه لأنه نبى ، والنبى أفضل من الولى ، وإن كان نبيا فموسى فضله بالرسالة ، والله أعلم][2] فموسى -ﷺ- مع كونه أفضل من الخضر سواء أكان الخضر كما وضح القرطبى نبيا أم وليا فهو لكمال تواضعه وأدبه قد جعل من نفسه تبعا له ، بل استأذنه فى هذه التبعية وهذا هو غاية الأدب والتواضع.

يقول الدكتور/ محمد الفقى موضحا لنا هذا الأدب الرفيع الصادر عن موسى -عليه السلام-:" قوله" هل أتبعك" تدل على أن موسى -عليه السلام -يراعى أنواعا كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر فإنه قد جعل نفسه تبعا له إذ قال" هل أتبعك" ثم إنه فضلا عن ذلك قد استأذن فى إثبات التبعية بقوله: هل تأذن فى أن أجعل نفسى تبعا لك ؟ وفى ذلك مبالغة عظيمة فى التواضع ، ثم قال كذلك"على أن تعلمنى مما علمت رشدا" وفى ذلك إقرار منه -عليه السلام-للخضر بالعلم ، وقوله" مما علمت" آية من آيات تواضعه -ﷺ- ومن غير الأنبياء يكون كامل الأدب عظيم التواضع"[3].

ولأن الخضر -عليه السلام- يعلم أن ما يصدر منه إنما هو منكر تستنكره العقول السليمة فى ظاهره حكم على سيدنا موسى بعادة الخلق فى عدم الصبر إذا خرج الأمر عن حكم العادة والمألوف لديهم ، فقال:"**قال إنك لن تستطيع معي صبرا {} وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا**"[4].

قال أبو حيان الأندلسى -رحمه الله- :" نفى الخضر استطاعة الصبر معه على سبيل التأكيد كأنها مما لا يصح ولا يستقيم ، وعلل ذلك بأنه يتولى أمورا فى ظاهرها ينكرها الرجل الصالح ، فكيف بالنبى؟ فلا يتمالك أن يشمئز لذلك ويبادر بالإنكار ، فلا يمكنه الصبر لما يرى من منافاة ما هو على شريعته"[5]. والمعنى كما قال النحاس :"كيف تصبر على ما ظاهره خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه ، والأنبياء لا

---

[1] سورة الكهف ، من الآية: ٦٦ .

[2] الجامع لأحكام القرآن لـ القرطبى المجلد السادس ١٣/١١ دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، وينظر فتح القدير ٢٩٩/٣ .

[3] قصص الأنبياء أحداثها وعبرها ، لـ محمد الفقى صـ ٣٢٤ .

[4] سورة الكهف الآيتان: ٦٧-٦٨ .

[5] البحر المحيط ٢٠٥/٧ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢ م ، بيروت لبنان ، وينظر الكشاف ٦٨٥/٢ .

يقرون على منكر ولا يسعهم التقرير ، أى لا يسعك السكوت جريا على عادتك وحكمك"[١] وهذا يوضح لنا رفق المعلم بتلميذه فهو يوضح له صعوبة الطريق الذى يسلكه ليتزود بزاد الحزم والصبر.

ولقد استنبط بعض العلماء من هذا :"أن المعلم من لوازم تربيته وتعليمه أن يهيىء تلامذته ذهنيا ويوصيهم بالصبر على طلب العلم"[٢] ثم علل له نفى الصبر عنه وهو لعدم إحاطته علما بتلك الأشياء التى تصدر عنه ، فقال:"وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا" والإحاطة بالشيء علما كما قال الراغب :"هى أن تعلم وجوده وجنسه وكيفيته وغرضه والمقصود به وبإيجاده وما يكون به ومنه ، وذلك ليس إلا لله تعالى .. وإنما قال صاحب موسى له ذلك تنبيها أن الصبر التام إنما يقع بعد إحاطة العلم بالشيء وذلك صعب إلا بفيض إلهى"[٣].

ويستنبط من هذا أن المرء لا يستطيع الصبر على أمور لم يحط بها علما، وهذا ما وضحه الإمام السعدى فى تفسيره إذ يقول:" السبب الكبير لحصول الصبر إحاطة الإنسان علما وخبرة بذلك الأمر الذى أمر بالصبر عليه ، وإلا فالذى لا يدريه أو لا يدرى غايته ولا نتيجته ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله" وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا" فجعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خبرا بالأمر"[٤]. "فعلم الخضر ليس هو العلم البشرى الواضح الأسباب القريب النتائج إنما هو جانب من العلم اللدنى بالغيب أطلعه الله عليه بالقدر الذى أراده للحكمة الذى أرادها ، ومن ثم فلا طاقة لموسى بالصبر على الرجل وتصرفاته ولو كان نبيا رسولا ؛ لأن هذه التصرفات حسب ظاهرها قد تصطدم بالمنطق العقلى وبالأحكام الشرعية ولا بد من إدراك ما وراءها من الحكمة الغيبية ، وإلا بقيت عجيبة تثير الاستنكار"[٥]. ويذكر الإمام الرازى فى هذا الشأن ما نصه :" اعلم أن المتعلم على قسمين متعلم ليس عنده شيء من العلم ولم يمارس القيل والقال ولم يتعود التقرير والاعتراض ، ومتعلم حصل العلوم الكثيرة ومارس الاستدلال والاعتراض ثم إنه يريد أن يخالط إنسانا أكمل منه[٦] ليبلغ درجة الكمال والتمام فهذا يكون شاقا شديدا ، وذلك لأنه إذا رأى شيئا أو سمع كلاما فربما كان ذلك بحسب الظاهر منكرا إلا أنه كان فى الحقيقة صوابا ، فهذا المتعلم لأجل أنه ألف القيل والقال وتعود الكلام والجدال ، فيغتر بظاهره فيقدم على النزاع والاعتراض والمجادلة ، مما يثقل سماعه على الأستاذ الكامل المتبحر فإذا اتفق مثل هذه الواقعة مرتين أو ثلاثا حصلت النفرة والكراهة الشديدة وهذا ما أشار إليه الخضر" إنك لن تستطيع معى صبرا" إشارة إلى أنه ألف الكلام وتعود الإثبات والابطال والاستدلال [٧] وقوله" كيف تصبر على ما لم

---

[١] معانى القرآن للنحاس ٢٦٨/٤ .
[٢] فى موكب النبيين لسيد أحمد الكيلانى ٣٨٨/٢ ، دار القلم ، الكويت .
[٣] المفردات للراغب صـ ١٣٦-١٣٧ ، كتاب الحاء .
[٤] تيسير الكريم الرحمن ، لـ السعدى صـ ٤٨٤ .
[٥] فى ظلال القرآن المجلد الرابع ٢٢٧٩/١٥ ، بتصرف يسير .
[٦] ليس المقصود أنه أفضل منه ، بل المراد أكمل منه فى العلم حيث علمه الله العلوم الغيبية الباطنة .
[٧] فيما لا يسوغ عنده .

تحط به خبرا" إشارة إلى كونه غير عالم بحقائق الأشياء كما هى ، ومتى حصل الأمران صعب السكوت وعسر التعليم"[١].

وموسى -عليه السلام- كان قد قطع مسافة كبيرة ذاق فيها ويلات السفر من جوع وتعب يشير إلى ذلك قوله :"**لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا**"[٢] والنصب كما تقدم الإعياء من العناء قاله ابن منظور[٣] ، فقد تحمل عليه السلام المشاق فى سبيل الوصول إلى هذا العبد طاعة لله -ﷻ-لذلك لم يغضب عندما أخبره الخضر بأنه لن يستطيع معه صبرا ، بل لقد أبدى استعداده وتلهفه لهذا العلم الجديد . يقول محمد زهران:" وموسى فى سبيل الله ، والوصول إلى الله ، لا يغضب من الشيخ ، ولا ينفر من تهوينه ، ولا ييأس من تصعيبه ، ويبدى استعداده وتلهفه على علم جديد فوق ما كان يظن أنه قد علم وأتم العلم"[٤] فقال :"**ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا**"[٥] وفى هذا الرد من موسى -عليه السلام- لبرهان -وأى برهان- على نهاية تواضع موسى -عليه السلام- للخضر ، وهو يوجب على المتعلم التواضع بأقصى آياته وبعد غايته"[٦]. قال الإمام الرازى:" تأمل تواضع سيدنا موسى -عليه السلام- حيث يقول الخضر له" كيف تصبر على ما لم تحط به خبرا" ويقول موسى": ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا" وهذا يدل على أن الواجب على المتعلم إظهار التواضع بأقصى الغايات ، وأن المعلم إن رأى أن فى هذا التغليظ على المتعلم ما يفيده نفعا وإرشادا إلى الخير لواجب عليه ذكره ، فإن السكوت عنه ليوقع المتعلم فى الغرور والنخوة وذلك يمنعه من التعلم"[٧].

ويبدو أن سيدنا موسى -عليه السلام- كان يعلم ضيق صدره ، وسرعة غضبه إذا رأى ما يخالف الشرع أو العادة ؛ لذلك قرن الصبر بالمشيئة طالبا من الله المد والعون بأن يتمالك نفسه ولا يبادر بالإنكار ، يقول الإمام الزمخشرى:" رجا موسى -عليه السلام- لحرصه على العلم وازدياده- أن يستطيع معه صبرا بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر فوعده بالصبر معلقا بمشيئة الله ، علما منه بشدة الأمر وصعوبته ، وأن الحمية التى تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شىء لا يطاق"[٨].

ومعنى الآية كما قال ابن جرير :"ستجدنى صابرا على ما أرى منك وإن كان خلافا لما هو عندى صواب ، وانتهى إلى ما تأمرنى وإن لم يكن موافقا هواى"[٩]. والمراد بالصبر المذكور "هو الثبات والإقرار على الفعل وعدم الاعتراض عليه"[١٠].

---

[١] مفاتيح الغيب المجلد الحادى عشر ١٢٩/٢١ ، بتصرف يسير .
[٢] سورة الكهف ، من الآية: ٦٢ .
[٣] لسان العرب ٤٤٣٤/٦ ، باب النون ، مادة نصب .
[٤] قصص من القرآن لمحمود زهران صـ ١٤٤ ، ١٤٥ .
[٥] سورة الكهف ، من الآية: ٦٩ .
[٦] قصص الأنبياء أحداثها وعبرها لـ محمد الفقى صـ ٣٢٤ بتصرف .
[٧] مفاتيح الغيب للرازى المجلد الحادى عشر ١٣٠/٢١ بتصرف .
[٨] الكشاف ٦٨٦/٢ .
[٩] جامع البيان للطبرى ٢٨٣/١٥ .
[١٠] روح المعانى ٣٣٤/١٥ .

ولكن هذا لم يتحقق منه –عليه السلام– فلقد أخبر أنه سيصبر فى المستقبل وعندما اصطدم بالواقع وشاهده لم يستطع الصبر.قال الإمام السعدى –رحمه الله– معلقا على قول موسى" ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك امرا" :" هذا عزم منه قبل أن يوجد الشيء الممتحن به والعزم شيء ووجود الصبر شيء آخر فلذلك ما صبر موسى –عليه السلام– حين وقع الأمر"[1].

_ **شرط الصحبة** : "قال الخضر –عليه السلام– لموسى : إن صاحبتنى آخذ عليك عهدا وشرطا ، أن تأخذ عدتك من الحزم والصبر ونصيبك من الجلد وضبط النفس ، فلا تبتدرنى بسؤال ولا تثر أمامى أى اعتراض حتى ينقضى الشرط و تنتهى الرحلة ، وإنى بعدها سآتى على ما فى نفسك وأشفى ما بصدرك"[2]. كان هذا هو شرط الصحبة ويشار إليه بقوله:" فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا" "أى إن أنكرته فلا تعجل بالمسألة إلى أن أبين لك الوجه فيه ، وأن أكون أنا الذى أفسره لك"[3]، قال الإمام القرطبى :" هذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضى دوام الصحبة ، فلو صبر ودأب لرأى العجب ، لكنه أكثر الاعتراض فوجب الفراق والإعراض"[4] وفى هذا يشير الإمام القشيرى قائلا :" ليس للمريد أن يقول ..لا.. لشيخه ، ولا التلميذ لأستاذه ، ولا العامى للعالم المفتى فيما يفتى ويحكم"[5].

كان هذا هو شرط الصحبة ألا يسأله ولا يستفسر منه عن شيء من تصرفاته ، حتى يكشف له عن سرها وقبل موسى –عليه السلام– شرطه ، وقيد به نفسه رعاية لأدب المتعلم على المعلم ، ولكن من يدرى هلى يلتزم موسى بالشرط ، أم أنه سيرى من الأمور ما لا يستطيع نحوها التمالك والصبر ، هذا ما وضحه القرآن الكريم فلقد بين أن موسى لم يستطع التمالك والصبر لما يراه من أمور مستغربة تثير الدهشة والغرابة،،،

الأمور التى خفيت أسرارها على موسىعليه السلام فتعجل بإنكارها:

الأمر الأول : وهو ما أشار إليه القرآن بقوله :"**فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا**"[6] وجاء فى الصحيح[7] كما سبق :" فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهم سفينة كلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول ، فلما ركبا فى السفينة جاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة أو نقرتين، قال له الخضر: يا موسى ما نقص من

---

(1) تيسير الكريم الرحمن ، لـ السعدى صـ ٤٨٢ .
(2) قصص القرآن لمحمد أحمد جاد المولى صـ ١٤١ .
(3) معانى القرآن للنحاس ٢٦٩/٤ ، وانظر مفاتيح الغيب المجلد الحادى عشر ١٣٠/٢١ ، وفتح القدير ٢٩٩/٣ ، والوسيط ١٥٨/٣ ، تفسير المراغى ١٧٨/١٣ ، جامع البيان ٢٨٣/١٥ ، معانى القرآن للزجاج ٣٠١/٣ .
(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد السادس ١٤/١١ .
(5) لطائف الإشارات ٤٠٩/٢ .
(6) سورة الكهف الآية: ٧١ .
(7) سبق تخريجه .

علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر[1] إذ أخذ الفأس فنزع لوحا قال : فلم يفجأ موسى إلا وقد قلع لوحا بالقدوم فقال له موسى ما صنعت ؟ قوم حملونا بغير نول وعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا ، قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ؟ قال: لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا فكانت الأولى من موسى نسيانا" والحديث قد أخبر أنهم قد حملوهم بغير نول وهو بفتح النون وإسكان الواو الأجر والنول ، والنوال العطاء (قاله الإمام النووى)[2].

وهذا يدل على أنهم قد أكرموهم وصنعوا لهم معروفا ، لذلك عندما قابل الخضر الإحسان بالإساءة حيث قلع لوحا من ألواحها أنكر موسى عليه هذا ناسيا عهده معه. يذكر الإمام ابن كثير فى هذا الشأن ما نصه :" لما استقرت بهم السفينة فى البحر ولجت(أى دخلت اللجة)[3] قام الخضر وخرقها واستخرج لوحا من ألواحها ثم رفعها فلم يملك موسى-عليه السلام- أن قال منكرا عليه : أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا[4] قال مجاهد(٥):" أى منكرا" [6] وقال النووى :"أى عظيما كثير الشدة"[7] وموسى -عليه السلام- لم يكن متعجلا بإنكار هذا خوفا على نفسه ، وإنما لما فيه من إغراق قوم بلا ذنب ولا جرم مسبق ، وهذا ما يأباه الرجل الصالح فما بالنا برسول الله -ﷺ- وليس كما يقول محمود زهران : " تلفت موسى إلى أصحاب السفينة وإلى أستاذه الشيخ وعجب من فعله وركاب البحر يخافون الغرق ، يرمون كل خرق فى سفينتهم ، فما بال هذا الشيخ يعكس الآية ويخرق السفينة ، لا بد أنه يود أن يغرق أهلها ويغرقنا معهم ، وهذه الحياة لا يغامر بها إنسان فماذا بعد أن يغرقنا هذا الشيخ الذى عاهدنى على ألا أتعجل وألا أسأل ؟ فمال موسى يهمس فى أذن أستاذه وقد تخطى حدود المعاهدة التى عقدها عند الصخرة وقال له أخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئا إمرا"[8].

ففى هذا النص عبارتان لا أتفق فيهما مع الكاتب ؛ الأولى : قوله" وهذه الحياة لا يغامر بها إنسان" وكأن هم موسى -عليه السلام- هو نفسه فقط ، وهو الذى حمله على الإنكار ، وهذا لا يقوله أحد ،

---

(1) قال القرطبى:" هذا من الخضر تمثيل أى معلوماتى ومعلوماتك لا أثر لها فى علم الله ، كما أن ما اخذ هذا العصفور من هذا البحر لا أثر له بالنسبة إلى ماء البحر وإنما مثل له بالبحر لأنه أكثر مما يشاهده من بين أيدينا وإطلاق لفظ النقص هنا تجوز ، قصد به التمثيل والتفهيم إذ لا نقص فى علم الله ولا نهاية فى معلوماته . [القرطبى المجلد السادس ١٤/١١، ط الأولى ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م] وقال النووى : قال العلماء لفظ النقص هنا ليس على ظاهره وإنما معناه أن علمى وعلمك بالنسبة إلى علم الله تعالى كنسبة ما نقره هذا العصفور من ماء البحر هذا على التقريب إلى الأفهام وإلا فنسبة علمها أقل و أحقر[صحيح مسلم بشرح النووى ١٤١/١٥].

(2) صحيح مسلم بشرح النووى ١٤٠/١٥ بتصرف يسير .

(3) قال الراغب : لجة البحر بالضم تردد أمواجه [المفردات فى غريب القرآن صـ ٤٤٨ كتاب اللام مادة لج] .

(4) تفسير القرآن العظيم لإبن كثير ٩٨/٣ .

(5) مجاهد بن جبر أبو الحجاج مولى السائب المخزومى المكى ، قرأ على ابن عباس ، وصحب ابن عمر مدة كثيرة وأخذ عنه ، وحدث عنه قتادة وآخرون ، توفى سنة ثلاث ومائة (انظر طبقات المفسرين للداودى صـ١١ ، والكواكب الدرية جـ١ ، القسم الثانى ٤٢٥، ٤٢٦).

(6) تفسير مجاهد لمجاهد بن جبر المخزومي التابعي أبو الحجاج ٣٧٩/١ ،المنشورات العلمية بيروت،تحقيق عبد الرحمن الطاهر محمد السورتي.

(7) صحيح مسلم بشرح النووى ١٤٠/١٥ .

(8) قصص من القرآن لمحمود زهران صـ ١٤٦ .

فموسى –عليه السلام– كان مشفقا عليهم أكثر من إشفاقه على نفسه ؛ ولذلك عبر بقوله" لتغرق أهلها" ولم يقل" لتغرقنا" ولقد وضح الإمام الألوسى–رحمه الله–العلة من ذلك فقال:"إشفاقاعلى القوم أكثر من إشفاقه على نفسه وهذه هى عادة الأنبياء"[1].

الثانية : قوله" تخطى حدود المعاهدة التى عقدها" كأن موسى كان قاصدا أن ينقض عهده مع الخضر وليس الأمر كذلك ، بل إن سيدنا موسى لما شاهد فظاعة الأمر لم يتمالك نفسه ونسى عهده مع الخضر فبادر بالإنكار ؛ فكان منه –ﷺ– نسيانا لعهده ، كما قال اعتذارا للخضر" لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا" وقال –ﷺ–" فكانت الأولى من موسى نسيانا"، يقول سيد قطب:"سفينة تحملهما وتحمل معهما ركبانا وهم فى وسط اللجة ثم يجيىء هذا العبد الصالح فيخرق السفينة ، إن ظاهر الأمر هنا أن هذه الفعلة تعرض السفينة وركابها لخطر الغرق وتؤدى بهم إلى هذا الشر ، فلماذا يقدم الرجل على هذا ، لقد نسى موسى ما قاله هو ، وما قاله صاحبه أمام هذا التصرف العجيب الذى لا مبرر له فى نظر المنطق العقلى ، والإنسان قد يتصور المعنى الكلى المجرد ولكنه عندما يصطدم بالتطبيق العملى لهذا المعنى ، والنموذج الواقعى يستشعر له واقعا غير التصور النظرى ، فالتجربة العملية ذات طعم آخر غير التصور المجرد ، وهاهو ذا موسى الذى نبه من قبل إلى أنه لا يستطيع صبرا على مالم يحط به خبرا ، فاعتزم الصبر واستعان بالمشيئة وبذل الوعد وقبل الشرط ، هاهو يصطدم بالتجربة العملية لتصرفات هذا الرجل فيندفع مستنكرا"[2].

وفى صبر ولطف من الأستاذ لتلميذه يذكر الخضر موسى –عليهما السلام– بما قاله واشترطه عليه منذ بداية الرحلة فقال :" ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا" يعنى" هذا الصنيع الذى فعلته قصدا من الأمور التى اشترطت معك ألا تنكر على فيها ؛ لأنك لم تحط بها خبرا ولها مصلحة لم تعلمها أنت"[3] حينئذ تذكر موسى الشرط فأدرك ما وقع فيه من مخالفة للعهد ، وما تورط فيه من نسيان فاعتذر إليه قائلا:" لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا" فلا تحرمنى من شرف صحبتك وفضل مرافقتك ، وسأكون بعد الآن كما اشترطت على ألا أسأل ولا استفسر حتى تكون أنت المبتدىء ، ولقد اختلف فى عذر موسى فقيل إنه من معاريض الكلام واحتج ابن حجر على هذا القول" بأنه لو كان ثابتا لاعتذر موسى عن الثانية وعن الثالثة بنحو ذلك"[4] وقيل إنه قد نسى فعلا"[5] واختلف فى هذا النسيان قيل "هو على حقيقته على تقدير أن موسى نسى ذلك ، أو بمعنى الترك على تقدير أنه لم ينس ما قاله ولكنه ترك العمل به"[6].

---

[1] روح المعانى ٣٣٥/١٥ .
[2] فى ظلال القرآن المجلد الرابع ٢٢٧٩/١٥ .
[3] تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٩٨/٣ بتصرف .
[4] فتح البارى ٢٧٢/٨ .
[5] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد السادس ١٥/١١ بتصرف .
[6] فتح القدير ٣٢/٣ .

والقول الصواب إن موسى –عليه السلام– قد نسى بالفعل والنسيان على حقيقته لظاهر النص القرآني والحديث النبوى الشريف ، والعمل بظاهر النص أولى .

ومعنى قوله" ولا ترهقنى من أمرى عسرا" أى لا تعسر على متابعتك ويسرها على بالإغضاء وترك المناقشة"[١] قال ابن منظور :" أى لا تغشنى شيئا ، وأرهقه عسرا أى: كلفه إياه ، تقول : لا ترهقنى ، لا أرهقك الله أى: لا تعسرنى ، لا أعسرك الله ، والرهق : غشيان الشيء رهقه بالكسر – يرهقه رهقا أى غشيه ، تقول رهقه ما يكره أى غشيه ذلك"[٢].

وفى معانى القرآن للزجاج :عاملنى باليسر لا بالعسر [٣]وقيل "ترهقنى بمعنى تعجلنى"[٤].

الأمر الثانى من الأمور التى تعجل موسى بإنكارها: "قبل الخضر –عليه السلام– عذر سيدنا موسى وغادرا السفينة ، وتابعا السير فوجدا غلاما وضيئا يلعب مع لدانه وأقرانه ، فأخذه الخضر بعيدا ثم أضجعه وقتله! ففزع موسى من هذا القتل وكبرعنده ذلك الإثم ؛ إذ رأى غلاما يافعا ، قد يكون وحيد أهله ورجاء والديه يقتل فى غير قود[٥] ويسفك دمه من غير إثم على يد ربانى كريم وإمام من أئمة الدين ! فتحلل من عهده وأطلق نفسه من ميثاقه وقال : ما هذا المنكر الذى تأتيه؟ والإثم الذى ترتكبه؟" أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا"[٦]. ويقص القرآن هذا الموقف فيقول عز من قائل :" **فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا**" فإذا كانت الأولى خرق السفينة واحتمال غرق أهلها فهذه قتل نفس عمدا لا مجرد احتمال ، وهى فظيعة لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تذكره الوعد فليس ناسيا فى هذه المرة ولا غافلا ولكنه قاصدا أن ينكر هذا النكر الذى لا يصبر على وقوعه ، ولا يتأول له أسبابا"[٧]يقول ابن كثير:" إنه عمد إليه من بينهم وكان أحسنهم وأجملهم وأضوأهم فقتله ... فلما شاهد موسى –عليه السلام– هذا أنكره أشد من الأول"[٨] وجاء فى الصحيح كما مر:" فلماخرجا من البحر مروا بغلام يلعب مع الصبيان فأخذ الخضر برأسه فقلعه بيده فقال له موسى : أقتلت نفسا زكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئا نكرا!".

ولقد اختلف فى بلوغ هذا الغلام ، والصحيح أنه كان صبيا بدليل قول موسى منكرا:أقتلت نفسا زكية بغير نفس؟ والزكية كما قال النووى:"الطاهرة من الذنوب"[٩] وقال الفراء(١٠):" "الزاكية والزكية مثل

---

(١) الكشاف ٦٨٧/٢ ، وينظر مفاتيح الغيب المجلد الحادى عشر ١٣١/٢١ ، وتفسير المراغى ١٧٩/٣ .

(٢) لسان العرب ١٧٥٥/٣ ، مادة رهق باب الراء .

(٣) معانى القرآن وإعرابه للزجاج ٣٠٢/٣ .

(٤) تذكرة الأريب فى تفسير الغريب لأبى الفرج الجوزى ٣٢٢/١ ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط. الأولى ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٩م

(٥) القود : القصاص وقتل القاتل بدل القتيل [لسان العرب ٣٧٧١/٥ ، باب القاف مادة قود] .

(٦) قصص القرآن للمرحوم محمد أحمد جاد المولى صـ ١٤٢-١٤٣ بتصرف يسير .

(٧) فى ظلال القرآن لسيد قطب المجلد الرابع ٢٢٨٠/١٥ بتصرف .

(٨) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٩٨/٣ .

(٩) صحيح مسلم بشرح النووى ١٤٠/١٥ .

(١٠)يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور أبو زكريا الديملى المعروف بالفراء الإمام المشهور ،أخذ عنه الكسائى ، وهو من جلة أصحابه ، وكان أبرع الكوفيين ، له مصنفات كثيرة فى النحو واللغة ومعانى القرآن – مات بطريق مكة سنة ٢٠٧/ البلغة فى

القاسية والقسية"[١] وقال الزجاج :" زكية بريئة لم ير ما يوجب قتلها"[٢] ومعنى قوله بغير نفس أى بغير قصاص لك عليها"[٣]. وهذا يدل على أن هذا الصبى لم يرتكب ذنبا يوجب قتله بسببه ، لذلك أنكره سيدنا موسى -عليه السلام- وهو النبى الذى كانت دعوته حقن الدماء لا إراقتها ، دعوة للإصلاح بين البشر لا للإفساد بينهم وقتل بعضهم بعضا بغير وجه حق ، ونلاحظ فى التعبير القرآنى أن سيدنا موسى وسم الأمر الأول بأنه" إمرا" أى عظيما ، وهذا الأمر قال فيه" نكرا" أى منكرا .

ولقد اختلف العلماء فى أيهما أبلغ ولماذا قال فى إغراق السفينة إمرا بينما قال هنا نكرا ؟

"قيل النكر أعظم من الإمر فى القبح ، وهذا إشارة إلى أن قتل الغلام أقبح من خرق السفينة ؛ لأن ذلك ماكان إتلافا للنفس ؛ لأنه كان يمكن أن لا يحصل الغرق ، وأما ها هنا حصل الإتلاف قطعا فكان أنكر ، وقيل: إن قوله [لقد جئت شيئا إمرا] أى عجبا والنكر أعظم من العجب ، وقيل النكر ما أنكرته العقول ونفرت عنه النفوس فهو أبلغ فى تقبيح الشىء من الإمر ، ومنهم من قال: الإمر أعظم ، قال : لأن خرق السفينة يؤدى إلى إتلاف نفوس كثيرة وهذا القتل ليس إلا إتلاف شخص واحد ، وأيضا الإمر الداهية العظيم ، فهو أبلغ من النكر"[٤].

والقول والله أعلم : إن قوله نكرا أبلغ من قوله إمرا ؛ لأن قتل النفس بغير وجه حق أقبح وأفظع من خرق السفينة لاسيما وأن الخضر لم يرد إغراقها وإنما أراد فقط تعييبها بدليل قوله" فأردت أن أعيبها" ومثل هذا العيب لا يؤدى إلى الغرق ، بينما احتمل موسى إمكانية الغرق فقال : لقد جئت شيئا إمرا أى عظيما ، أما قتل النفس فلقد قتل الغلام بالفعل وهو لم يسىء إليهم لذلك أنكره موسى أشد من الأولى فقال" نكرا" أى منكرا تستقبحه العقول السليمة ، وكما قال الإمام الشوكانى:" القتل لا يمكن إدراكه بخلاف نزع اللوح من السفينة فإنه يمكن تداركه وإرجاعه"[٥].

وبعد أن أنكر موسى -عليه السلام- على الخضر قتل النفس ، ولم يلتزم بالوعد ، فإذا بالخضر يلتفت إليه فى هدأة العلماء الحلماء حين لا يضيقون بتلاميذ يبغون العلم فيحملهم شوقهم إليه وغيرتهم على الحق إلى التعجل بالإنكار ومخالفة ما عاهدوا أنفسهم عليه ؛ فيذكره بعهده ، وما كان من شرطه ، قائلا له :" ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا" "كرر الرد لكنه فى هذه المرة زاد قوله" لك" أى أنت على التعيين والتحديد قاله صاحب الظلال[٦].

تراجم أئمة النحو واللغة لـ محمد بن يعقوب الفيروز آبادى ، صـ ٢٣٨ ، جمعية إحياء التراث ، الكويت ١٤٠٧هـ ، الأولى ، تحقيق / محمد المصرى) وينظر العبر فى خبر من غبر ، شمس الدين الذهبى ، ٣٥٤/١ ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت ١٩٨٤م الثانية ، تحقيق/صلاح الدين المنجد ومرآة الجنان لأبي محمد عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان اليافعى ٣٨/٢ ، دار الكتاب الإسلامى القاهرة ،١٤١٣هـ)و(أعلام الحضارة العربية الإسلامية "العهد العباسى والفاطمى" لـ زهير حميدان ٥٢١/٢ ، أشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع ، دمشق ، سوريا ١٩٩٥م).

[١] معانى القرآن للفراء ١٥٥/٢ تحقيق ومراجعة : محمد على النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

[٢] معانى القرآن للزجاج ٣٠٣/٣ .

[٣] صحيح مسلم بشرح النووى ١٤٠/١٥ .

[٤] مفاتيح الغيب المجلد الحادى عشر ١٣٢/٢١ ، وينظر روح المعانى ٣٣٩/١٥ ، وتفسير المراغى ١٧٩/١٣ ، والكشاف ٦٨٧/٢.

[٥] فتح القدير ٣٠٢/٣ .

[٦] فى ظلال القرآن المجلد الرابع ٢٢٨٠/١٥ .

قال الزمخشري:" فيه زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية"[١]. ولا يقدح مخالفة العهد الصادر من موسى فى عصمته ، فلقد أجرى -عليه السلام- الحكم على الفعل الذى هم به الخضر على ظاهره ، ولو أن إنسانا آخر غير الخضر يصحبه موسى وفعل ما فعل الخضر لأجرى موسى عليه الحد الشرعى الواجب فى تلك الحالة ، كما لو أن إنسانا آخر غير موسى صحب الخضر فى رحلته هذه كان من الممكن أن لا يستنكر عليه أفعاله ، ويمر بها مر الكرام ويكون فى ذلك شيء من النفاق والمداهنة ، إلا انه -عليه السلام- هو نبى الله الذى أمر بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مهما كلفه ذلك ، وتلك طبيعته التى غلبت عليه فى هذه الحالة وفاقت ما شرطه عليه الخضر فحدثته النفس بالإنكار مهما كلفه من أمر ، إلا أنه كان من الأولى والأفضل لموسى -عليه السلام- ليزداد علما ومعرفة أن لا يلتفت لهذا العارض الذى يوجب عليه الصبر، وعدم المبادرة إلى الإنكار، فما فعله موسى إنما هو من قبيل مخالفة الأولى والأفضل ؛ لذلك أراد الله تعليمه فعوقب بسبب استعجاله بالفراق ؛ تعليما وإرشادا وتربية من الله للتحلى بصفة التثبت ؛ ليكون أنبياؤه قادة يحتذى بهم وأئمة للدعاة من بعدهم ، وتذكر كتب القصص" أن سيدنا موسى -عليه السلام- أدرك أنه قد أثقل على هذا العبد الصالح ، وكان خليقا به أن يدرع بالصبر ، ويمسك لسانه عن الجدل ، حتى يفصح له بعد عما خفى من أمره وما تشابه به عليه من علمه ، وخشى إن تمادى أن يقع منه على موجدة أو كراهية ، فاتخذ لنفسه شرطا ألا يعجل بسؤال بعد الآن وإلا فإن رفيقه فى حل من مفارقته ، وقطع صحبته وقال :" إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا"[٢]. ولقد جاء فى الصحيح"وكانت الأولى نسيانا والوسطى شرطا والثالثة عمدا"[٣].

قال ابن حجر :" أشار بالشرط إلى قوله"إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى" والتزم موسى بذلك ، ولم يكتبا ذلك ولم يشهد أحد ، وفيه دلالة على العمل بمقتضى ما دل عليه الشرط فإن الخضر قال لموسى لما أخلف الشرط هذا فراق بينى وبينك ولم ينكر موسى- عليه السلام -ذلك"[٤] قال ابن العربى :" هذه الآية شرط وهو لازم ، والمسلمون عند شروطهم وأحق الشروط أن يوفى به ما التزمه الأنبياء أو التزم للأنبياء"[٥].ولقد ذكر العلماء ، إن قول موسى" قد بلغت من لدنى عذرا" إنما هو كلام نادم شديد الندامة اضطره الحال إلى الاعتراف ، وسلوك سبيل الإنصاف ، قاله الإمام الشوكانى فى فتح القدير[٦] ومعناه كما قال الإمام النووى :"قد بلغت إلى الغاية التى تعذر سببها فى فراقى"[٧].

---

[١] الكشاف ٦٨٧/٢ ، وينظر المراغى ٣/١٦ ، والتفسير المنير ٢٩٩/١٥ .
[٢] قصص القرآن لمحمد أحمد جاد المولى صـ ١٤٣ .
[٣] أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب التفسير باب [فلما بلغ مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، ١٤٦٧/٣ ، عن ابن عباس مطولا رقم الحديث (٤٧٢٦)، كما أخرجه فى كتاب الشروط ، باب الشروط مع الناس بالقول ٨٣٢/٢ رقم الحديث(٢٧٢٨).
[٤] فتح البارى ٣٨٤/٥ .
[٥] أحكام القرآن لابن العربى ١٢٤٦/٣ ، وينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد السادس ١٦/١١ .
[٦] فتح القدير ٣٠٣/٣ بتصرف .
[٧] صحيح مسلم بشرح النووى ١٤١/١٥ .

وهكذا استحيا موسى -عليه السلام- من معلمه فألزم نفسه بهذا الشرط ولو صبر -عليه السلام- لرأى -كما قال رسول الله- العجب فلقد روى أنه -ﷺ- قال :" رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة"[1]أى استحياء .

الأمر الثالث : "يمضى العبد ويمضى معه موسى .... يدخلان قرية بخيلة ، لا يعرف لماذا ذهبا إلى القرية ، ولا يعرف لماذا يبيتان فيها ، نفذ ما معهما من طعام ، فاستطعما أهل القرية فأبوا أن يضيفوهما ، وجاء عليهما المساء ، وأوى الإثنين إلى خلاء فيه جدار يريد أن ينقض.. جدار يتهاوى ويكاد يهم بالسقوط .. وفؤجيء موسى بأن الرجل العابد ينهض ليقضى الليل كله فى إصلاح الجدار وبناءه من جديد .. ويندهش موسى من تصرفات رفيقه ومعلمه ، إن القرية بخيلة لا يستحق من فيها هذا العمل المجانى .. قال :" لو شئت لأتخذت عليه أجرا"[2] ، ويصور القرآن الكريم لنا هذا فيقول عز من قائل :" **فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا**"[3].

"ولقد اختلف فى القرية التى أتوها قيل هى أيلة[4] وقيل هى أنطاكية[5] وقيل غير ذلك"[6].

قال الإمام القرطبى -رحمه الله -:" نشأ هذا الاختلاف بسبب الخلاف فى أى ناحية من الأرض كانت قصة موسى والله أعلم بحقيقة ذلك"[7] ولا فائدة من تعيين اسم القرية ؛ إذ لو فيه فائدة لعينها القرآن الكريم ، الذى ينبغى معرفته هو أن أهل هذه القرية وسموا بالبخل والشح ويدل على ذلك" استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما" والاستطعام كما قال الإمام الألوسى -رحمه الله- :" طلب الطعام على وجه الضيافة"[8] "وإنما عبر باستطعما دون استضافا للإشارة إلى أن جل قصدهما الطعام دون الميل بهما إلى منزل وإيوائهما إلى محل"[9].

ونلاحظ من التعبير القرآنى أنه وضع الظاهر موضع المضمر حيث قال" استطعما أهلها" دون" استطعماهم" يعود الضمير إلى أهل القرية فى قوله" حتى إذا أتيا أهل قرية" والحكمة من ذلك كما قال

---

[1] سبق تخريجه والإشارة إلى معنى ذمامة وضبطها .
[2] أنبياء الله أحمد بهجت صـ ٢٥٣ .
[3] سورة الكهف الآية :٧٧ .
[4] بالفتح مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام وقيل هى آخر الحجاز وأول الشام [معجم البلدان ٢٩٢/١ باب الهمزة والياء وما يليهما] .
[5] بالفتح ثم السكون والياء مخففة كانت العرب إذا أعجبها شيء نسبته إلى أنطاكية وقيل أول من بناها أنطيخس وهو الملك الثالث بعد الإسكندر وقيل أنطيغونيا فى السنة السادسة من موت الإسكندر ولم يتمها فأتمها بعده سلوقوس ... وما تزال هى قصبة العواصم فى الثغور الشامية وهى من أعيان البلاد وأمهاتها موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير [معجم البلدان ٢٦٦/١ باب الهمزة والنون وما يليهما] .
[6] انظر فتح القدير للشوكاني ٣٠٣/٣ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد السادس ١٧/١١-١٨ ، ومفاتيح الغيب للرازي المجلد الحادى عشر ١٣٣/٢١ ، والنكت والعيون للماوردي٣٣٠/٣ .
[7] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد السادس ١٨/١١ .
[8] روح المعانى للألوسى ٥/١٦ .
[9] روح المعانى للألوسى ٥/١٦ بتصرف يسير .

العلماء توكيدا[1]"وفائدة هذا التوكيد هو أنهما حين أتيا أهل القرية لم يأتيا جميع أهلها إنما أتيا بعضهم ، فلما قال [استطعما] احتمل أنهما لم يستطعما إلا ذلك البعض الذى أتياه فجيء بلفظ أهلها ليعم جميعهم وأنهم يتبعونهم واحدا واحدا بالاستطعام ولو كان التركيب استطعماهم لكان عائد على البعض المأتى قاله أبو حيان فى البحر"[2]. بينما كان للإمام الزركشى فى ذلك رأى آخر إذ يقول:" لم يقل استطعمهم للإشعار بتأكيد العموم وأنهما لم يتركا أحدا من أهلها إلا استطعماه وأبى"[3]. فعلى قول صاحب البحر يكونا قد طلبا الطعام من البعض إلا أنه قد عم لأن الجميع يتبعونهم فى الشح والبخل ، وعلى قول صاحب البرهان يكونا قد مروا على الجميع واحدا واحدا فأبوا لذلك عبر بلفظ أهلها للتعميم .

وكلا القولين مراد فالجميع يدخلون فى الذم واللواء سواء قد مروا بهم فأبوا ، أو وافقوا على عدم استطعامهم والله تعالى أعلم.

ومنهم من ذكروا حكما أخرى لهذا التكرار" وهو كراهة اجتماع الضميرين فى الكلمة"[4] "لما فيه من الكلفة ، أو لزيادة التشنيع على أهل هذه القرية بإظهارهم"[5]. وقوله" فأبوا أن يضيفوهما" امتنعوا من نزولهم عندهم ضيوفا ، قال ابن منظور :" ضفت الرجل ضيفا وضيافة ، وتضيفته نزلت به ضيفا وملت إليه ، وقيل نزلت به وصرت له ضيفا ، وضيفته وتضيفته :طلبت منه الضيافة"[6]. ولقد وصفهم النبى – ﷺ– فى صحيح مسلم عند ذكر خبر موسى والخضر بأنهم لئاما"[7].

وقد يتساءل سائل : "الضيافة من المندوبات وتركها ترك للمندوب[8]وذلك أمر غير منكر ، فكيف يجوز لموسى مع علو منصبه أن يغضب عليهم الغضب الشديد الذى لأجله ترك العهد الذى التزمه مع ذلك العالم فى قوله [إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى] ؟ والجواب: إن الضيافة قد تكون من المندوبات وقد تكون من الواجبات إذا كان الضيف قد بلغ الجوع إلى حيث لو لم يأكل لهلك وهذا ما حدث لسيدنا موسى والخضر . وهما إنما سألا ماوجب لهما من الضيافة"[9]. ولنتصور شدة الجوع والتعب التى كان عليها الخضر وموسى –عليهما السلام–وهما لم يطلبا إيواء أو إقامة ، وإنما طلبا ما يسد جوعهما ويروى ظمأهما ، وإذا بالخضر –عليه السلام– وهو على تلك الحالة من التعب والجوع يقيم جدارا مائلا يوشك على السقوط " فوجد فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه" والجدار كما فى اللسان : الحائط والجمع جدر ، وجدران جمع الجمع مثل بطن وبطنان [10] ومعنى ينقض أى يسقط ففى الصحاح :"انقض الحائط

---

(1) التبيان فى إعراب القرآن ٨٥٧/٢ .
(2) البحر المحيط ٢٠٩/٧ .
(3) البرهان للزركشى ٤٩٤/٢ .
(4) أى استطعما والضميرين هما ألف الإثنين العائد على الخضر وموسى عليهما السلام ، وهاء الغائب العائد على أهل القرية .
(5) فتح القدير للشوكاني ٣٠٣/٣ .
(6) لسان العرب ٢٦٢٥/٤ مادة ضيف باب الضاد .
(7) انظر صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضائل الخضر عليه السلام ، ١٨٥٢/٤.
(8) المندوب إليه ما تعلق الثواب بفعله ولم يتعلق العقاب بتركه كالسواك والوتر والأضحية والمضمضة والاستنشاق وسائر النوافل وصدقة التطوع وغير ذلك والمسنون والمستحب والمندوب إليه واحد [انظر شرح اللمع لأبي اسحاق ابراهيم الشيرازى ١٦٠/١ حققه /عبد المجيد تركى ، دار الغرب الإسلامى ، ط. الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م] .
(9) مفاتيح الغيب المجلد الحادى عشر ١٣٣/٢١ بتصرف .
(10) لسان العرب ٥٦٦/١ ، مادة جدر باب الجيم .

سقط وانقض الطائر هوى فى طيرانه"[1] وقال ابن منظور:"انقض الجدار تصدع من غير أن يسقط وقيل سقط"[2].

ويفهم من هذه المعانى اللغوية أن هذا الحائط كان مائلا وقارب السقوط إلا أن الخضر -عليه السلام- سواه وعدله وهو ما يشار إليه بقوله :" فأقامه" قيل نقضه ثم بناه ، وقيل أقامه بيده ، وقيل مسحه بيده فقام واستوى وكان ذلك من معجزاته"[3] وهنا يدور فى خلد موسى -عليه السلام -تعجبا من صنع هذا الرجل الذى كان منذ بداية الرحلة يقابل الإحسان بالإساءة عندما استضافه أهل سفينة فقراء وحملوهم بغير أجر وأحسنوا إكرامهم وإذا به يخرق سفينتهم ليغرقهم ، وهنا يقابل الإساءة بالإحسان ويصلح جدارا لقرية بخلاء أشحاء لا يستحقوا إلا اللوم والذم إذا طلبوا منهم طعاما فأبوا ، لم يتمالك موسى -عليه السلام- مشاعره لأنه وجد نفسه أمام حالة متناقضة قوم بخلاء أشحاء لا يستحقون العون .. ورجل يتعب نفسه فى إقامة حائط مائل لهم.. هلا طلب منهم أجرا على هذا العمل الشاق ، لا سيما وهما جائعان لا يجدان مأوى لهما فى تلك القرية ؛ لذلك بادر موسى عليه السلام ليقول للخضر:" لو شئت لاتخذت عليه أجرا" ، يذكر الإمام الزمخشرى فى هذا الشأن ما نصه :"كانت الحال حال اضطرار وافتقار إلى المطعم ، ولقد زلتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسألة ، فلم يجدا مواسيا ، فلما أقام الجدار، لم يتمالك موسى ؛ لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة ، والمعنى لو شئت طلبت على عملك جعلا حتى تنتعش وتستدفع به الضرورة"[4] فالجملة تحريض من سيدنا موسى للخضر -عليهما السلام- على أخذ الأجر على عمله ولوم له على ترك هذا الأجر مع أنهما فى أشد الحاجة إليه ، وكان هذا التحريض من موسى -عليه السلام- للخضر هو نهاية المرافقة والمصاحبة . يقال : إن الخضر عليه السلام قال لموسى : إنك نبى وإنما أؤاخذك بما قلت فأنت شرطت هذا الشرط وقلت إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى وإنما أعاملك بقولك ، ويقال : لما لم يصبر موسى معه على ترك السؤال لم يصبر الخضر أيضا معه فى إدامة الصحبة فاختار الفراق"[5].

ويستخلص من هذا أن سبب فراق الخضر لموسى -عليهما السلام- هو الشرط الذى التزم به موسى -عليه السلام- وهو أنه يتعين الفراق إذا سأله عن شيء بعد المرة الثانية ، وأولى الناس بالوفاء بعهودهم هم الأنبياء -عليهم السلام - ولقد ذكر مصطفى المراغى -رحمه الله- سببا آخر للفراق فيقول :" إنما كان هذا هو سبب الفراق دون الأولين ؛لأن ظاهرهما منكر فكان معذورا دون هذا إذ لا ينكر الإحسان إلى المسيء بل يحمد"[6].

---

[1] مختار الصحاح للرازي صـ ٢٢٥ مادة قضض .
[2] لسان العرب ٣٦٦١/٥ مادة قضض باب القاف .
[3] مفاتيح الغيب المجلد الحادى عشر ١٣٤/٢١ ، وينظر فتح القدير ٣٠٣/٣ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد السادس ٢٠/١١ ، والوسيط ١٦/٣ ، والكشاف ٦٩٠/٢ ، تفسير المراغى ٤/١٦ ، وروح المعانى ٧/١٦ .
[4] الكشاف ٦٩٠/٢ .
[5] لطائف الإشارات ٤١١/٢ .
[6] تفسير المراغى ٥/١٦ .

وقال الإمام القشيرى -رحمه الله- :" مادام موسى -عليه السلام- سأل لأجل الغير فى أمر السفينة التى كانت للمساكين وقتل النفس بغير الحق ، لم يفارقه الخضر ، فلما صار فى الثالثة إلى القول فيما كان فيه حظ نفسه من طلب الطعام ابتلى بالفرقة"[1].

والأول هو اللائق والأفضل بمقام النبوة .

هكذا انتهت الرحلة العجيبة المثيرة للدهشة والغرابة من صنع هذا الرجل الصالح ، ولقد فات موسى- عليه السلام- علما كثيرا وخيرا وفيرا بتعجله الإنكار المسبب للفراق ، وذلك لما رآه من أمور ظاهرها المنكر وفى باطنها رحمة وفضل من الله بعباده وهو العالم بخفايا الأنفس وبحقائق الأشياء "فالسفينة كانت لمساكين يعملون فى البحر ، فيصيبون منها رزقا يعينهم على الكسب ويقطعون بها مفازة الحياة ، ولكن ملكا ظالما كان يتبع كل سفينة صالحة يأخذها من أهلها عنوة ويستولى عليها غصبا ، فأردت أن أعيبها رفقا بهم ورحمة حتى إذا شهدها ملكهم تركها بعيبها .. فهذا عمل إن كان فى ظاهره منكر ففى باطنه الرحمة ، وإن كنت حسبته منكرا فإنما هو حفظ للمساكين وإبقاء حياة هؤلاء البائسين ، وأما الغلام فكان وقاحا مبغضا من الناس وكان أبواه مؤمنين ، وبما فطر الله الآباء على حب الأبناء والدفاع عنهم بالحق والباطل خشيت أن يحملهما هذا على التعصب له والميل إلى طريقته ، فينتهيا إلى الطغيان والكفر .. فقتلته حفظا لدينهما ورجاء من الله أن يرزقهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما ، وأما الجدار فقد علمت من الله أنه تحته كنز ليتيمين صغيرين .. فأردت أن أحمى هذا الجدار حتى يشتد أزرهما ويقوى على الحياة أمرهما ، فيستخرجا كنزهما مالا حلالا طيبا لهما ، وما فعلت هذا بعلمى ولا برأيى ، ولكنه وحى من الله وهدى منه ، ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا"[2].

كان هذا من الخضر كشف للنقاب عن أعماله المستغربة التى صنعها بأمر الله الذى هو يعلم السر وما يخفى ، ويستنبط من هذه القصة عدة أمور منها :

- إن سيدنا موسى تعجل ثلاثة أمور ، كانت بحسب علمه الظاهرى مخالفة للأحكام الشرعية بينما هى فى باطنها رحمة من الله ، وكان الخضر قد أعطى شفافية خاصة ومعرفة ببواطن الأمور وخفاياها ، وهى معرفة لا يطلع عليها إلا من اختصه الله من عباده بهذا العلم فهو علم لدنى من لدن الله العلى القدير قال تعالى فى شأن الخضر"**آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما**"[3].

- على المرء ألا يبادر "بإنكار مالا يستحسنه ؛ فلعل فيه سرا لا يعرفه ، وفيها تأديب لنبينا بترك طلب الاستعجال بعقوبة المشركين الذين كذبوا واستهزءوا به وبكتابه ؛ لأن تأويل ذلك صائر إلى هلاكهم وبوارهم بالسيف فى الدنيا واستحقاقهم من الله فى الآخرة الخزى والعذاب الأليم "[4].

---

[1] لطائف الإشارات ٤١١/٢ .

[2] قصص القرآن لـ محمد أحمد جاد المولى صـ ١٤٣ ، ١٤٤ .

[3] سورة الكهف ، من الآية: ٦٥ .

[4] تفسير المراغى ٩/١٦ .

– "الأمر بالتأنى والتثبت وعدم المبادرة بالحكم على الشيء حتى يعرف ما هو المراد منه وما المقصود"[1] قال الدكتور محمد سيد طنطاوى : التأنى فى الأحكام والتثبت من الأمور ومحاولة معرفة العلل والأسباب .. كل ذلك يؤدى إلى صحة الحكم وإلى سلامة القول والعمل[2].

– ومنها أن الأمور تجرى أحكامها على ظاهرها ، وتعلق بها الأحكام الدنيوية فى الأموال والدماء وغيرها ؛ فإن موسى أنكر على الخضر خرقه السفينة وقتل الغلام وأن هذه الأمور فى ظاهرها أنها من المنكر ، وموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عنها فى غير الحال التى صحب عليها الخضر ، فاستعجل عليه السلام وبادر على الحكم فى حالتها العامة ، ولم يلتفت إلى هذا العارض الذى يوجب عليه الصبر وعدم المبادرة إلى الإنكار"[3].

وبالجملة "فقد تضمنت هذه القصة فوائد كثيرة ومطالبة عالية خطيرة فامعن النظر فى ذلك والله سبحانه يتولى هداك"[4].

---

[1] تفسير الكريم الرحمن ، صـ ٤٨٤ .

[2] القصة فى القرآن الكريم للإمام الأكبر د/محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر ٤٨٨/١ نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

[3] تفسير السعدى صـ ٤٨٤ ، ٤٨٥ .

[4] انظر تفسير الألوسى ٢٢/١٦ .

البحث الرابع

تعجل سيدنا محمد ﷺ

لقد كان رسولنا الكريم-ﷺ- يعد المثل الأعلى للبشر فى كل شيء ، وما نخاله -ﷺ- تعجل في شيء ، وحسبه فى ذلك مواقفه مع قومه الذين آذوه وعذبوه ومع ذلك كان حليما معهم أشد الحلم ، وما ذكر فى القرآن من تعجل له -ﷺ- فإنه لايقدح فى حلمه ولا ينافى صبره-ﷺ-وسوف يتعرض البحث لتلك المواقف موضحا بواعثها المحمودة.

أولا تعجل سيدنا محمد -ﷺ- بتلاوة القرآن بداية نزوله عليه والبواعث على ذلك:

كان -عليه الصلاة- والسلام يتعجل بتلاوة القرآن بداية نزوله عليه ؛ مخافة نسيانه ؛ وليحفظ العدد الكثير منه قبل صعود جبريل ، فنهاه الله -ﷻ-عن التعجل بقراءته ، وأمره بالتمهل والتريث حتى ينتهى جبريل من تلاوته ، وبيان معانيه له ، ومعرفة مجمله من مفصله ، ثم بعد ذلك يقرأه كما قرأ عليه ، فكما نزل عليه القرآن مرتلا يجب عليه تلاوته كما نزل ، قال تعالى :" **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا**"[1]فهو-ﷺ- المبلغ ، والله -ﷻ-هو الحافظ للذكر ، قال تعالى:"**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**"[2].

ولقد وردت الآيات الناهية لرسول الله -ﷺ- عن العجلة بتلاوة القرآن عند نزوله ؛ تعليما له وإرشادا ، قال تعالى:"**ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما**"[3] روى عن السدى قال :" كان النبى -ﷺ- إذا نزل عليه جبريل أتعب نفسه فى حفظه حتى يشق على نفسه فيخاف أن يصعد جبريل ولم يحفظه فأنزل الله تعالى" ولا تعجل بالقرآن"[4].

وروى عن الحسن(*) سببا آخر للنزول وهو:"أن رجلا من الأنصار لطم امرأته ، فجاءت تلتمس القصاص فجعل النبى -ﷺ- بينهما القصاص فنزلت الآية" ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه"[6]. والأصح هو الأول إذ هو اللائق بسياق الآية كما يدل عليه قوله تعالى فى سورة القيامة"**لا تحرك به لسانك لتعجل به**"[7] فقد روى فى سبب نزولها "أن ابن عباس قال : كان رسول الله -ﷺ- يعالج من التنزيل شدة (*)وكان مما يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس : فأنا أحركهما كما كان رسول الله -ﷺ-

---

(1) سورة الإسراء الآية: ١٠٦ .
(2) سورة الحجر الآية :٩.
(3) سورة طه الآية: ١١٤ .
(4) لباب النقول فى أسباب النزول لجلال الدين السيوطي ص٢٩٢ ، المكتبة القيمة ،تحقيق حمزة النشرتي ،عبد الحفيظ فرغلي ،د/عبد الحميد مصطفى إبراهيم.
(5) كان من سادات التابعين وأفتى فى زمن الصحابة ، بالغ الفصاحة ، بليغ المواعظ ، كثير العلم بالقرآن ومعانيه ، مات سنة عشر ومائة(طبقات المفسرين للداودى ص-١٣).
(6) جامع البيان للطبري ٥٨/٥ .
(7) سورة القيامة الآية: ١٦ .
(8)سبب الشدة هيبة الملك وما جاء به وثقل الوحى قال تعالى:" إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا" والمعالجة المحاولة للشيء والمشقة فى تحصيله(صحيح مسلم بشرح النووى ١٦٦/٤).

يحركهما ، وقال سعيد : أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما ، فحرك شفتيه فأنزل الله تعالى" لا تحرك به لسانك لتعجل به إنا علينا جمعه وقرآنه" قال: جمعه فى صدرك تقرأه" فإذا قرأناه فاتبع قرآنه" قال فاستمع إليه وأنصت" ثم إنا علينا بيانه" ثم إن علينا أن نقرؤه فكان رسول الله -ﷺ- بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبى -ﷺ- كما قرأه"[١].

فهذه الرواية تدل على أن النبى -ﷺ- كان يتعجل بتلاوة القرآن فى نفسه ؛ ليحفظه قبل صعود جبريل -عليه السلام- قال الإمام النيسابورى عند شرح قوله" ولا تعجل بالقرآن":" نشأت الأقوال فى سبب النزول ؛ لأن قوله" لا تعجل بالقرآن" يحتمل التعجيل بقراءته فى نفسه ، أو فى تأديته إلى غيره ، أو فى اعتقاد ظاهره ، أو تعريف الغير ما يقتضيه الظاهر"[٢].

والمعنى كما قال المفسرون:"إذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن فتأن عليك ريثما يسمعك ويفهمك ، ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك ، ولا تكن قراءتك مساوقة لقراءته ونحوه ، وقيل لا تبلغ ما كان مجملا حتى يأتيك البيان"[٣]. ولقد عقب الإمام أبو السعود على هذا المعنى الأخير قائلا :"وليس بذاك ؛ فإن تبليغ المجمل وتلاوته قبل البيان لا ريب فى صحته ومشروعيته"[٤] والقول ما قال،، لا سيما وقد كانت بعض الآيات تنزل مجملة وتقرأ على الصحابة ثم يرد بعد ذلك لها تخصيص أو استثناء أو نسخ أو غير ذلك ، قال الإمام البقاعى:" كما أنا لم نعجل بإنزاله عليك جملة بل رتلناه لك ترتيلا ونزلناه إليك تنزيلا مفصلا تفصيلا وموصلا توصيلا ، فاستمع له ملقيا جميع تأملك إليه ، ولا تساوقه بالقراءة ، فإذا فرغ فاقرأه فإنا نجمعه فى قلبك ولا نسقيك بإنسائه وأنت مصغ إليه"[٥].

وما ينبغى معرفته أن تعجل النبى -ﷺ- فى تلاوة القرآن عند نزول جبريل عليه به ومساوقته أثناء تلاوته عليه تدل على الرغبة الشديد فى تحصيل العلم وحفظ القرآن وخوف نسيانه ، قال الإمام السعدى:" عجلته -ﷺ- على تلقف الوحى ومبادرته إليه تدل على محبته للعلم وحرصه عليه"[٦]وقال الإمام البقاعى عند تفسير قوله" لا تحرك به لسانك لتعجل به" :" العجلة وإن كانت الإتيان بالشىء قبل أوانه المقدر له والأليق به فإن النبى مثاب على ذلك أعظم الثواب ؛ لأنه لا حامل عليه إلا حب الله وحب ما يأتى منه"[٧] لهذا قال ابن عاشور : هذه الآية" لا تعجل بالقرآن" تشير إلى أن المنهى عنه استعجال مخصوص وأن الباعث على الاستعجال محمود"[٨].

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب بدء الوحى ، باب كيف بدأ الوحى إلى رسول الله (ص) ٢٣/١ رقم الباب (٥) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، كما أخرجه فى كتاب التفسير تفسير سورة القيامة ١٥٧٦/٣ ، ١٥٧٧ رقم الحديث (٤٩٢٧ ، ٤٩٢٨ ، ٤٩٢٩) ، وأخرجه مسلم أيضا فى كتاب الصلاة ، باب الاستماع للقراءة ٣٣٠/١ ، رقم الحديث(٤٤٨).

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى ٥٤٠/٧ .

(٣) الكشاف٩٠/٣ ، وينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٢٥٠/١١ ، وزاد المسير ٣٢٦/٥ ، والبغوى ٢٣٣/٣ ، وجامع البيان ٢١٩/١٦ ، والتحرير والتنوير ٣١٧/١٦ ، وتفسير المراغى ١٥٥/١٦ ، والنكت والعيون ٤٢٩/٣ ، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان ٥٤٠/٧ .

(٤) إرشاد العقل السليم لأبى السعود ٤٤/٦ .

(٥) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعي ٣٥٢/١٢ .

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدى صـ ٥١٤ .

(٧) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعي ٢٤٩/٨ .

(٨) التحرير والتنوير لإبن عاشور ٣١٧/١٦ بتصرف .

وهذه البواعث قد نوه إليها بعض المفسرين عند ذكر مناسبة قوله" ولا تعجل بالقرآن" بما سبقها ، قال الإمام البقاعى :" لما كانت الآيات السابقة واردة فى ذم من أعرض عن هذا الذكر ، كان التقدير فلا تعرض عنه بل أقبل عليه ؛ لتكون من المتقين الذاكرين ، ولما كان هذا الحث العظيم ربما اقتضى للمسابق فى التقوى المبالغة فى المبادرة إليه فيستعجل بتلقفه قبل الفراغ من إيحائه قال عاطفا على هذا المقدر"ولا تعجل بالقرآن"[١]. وقال ابن عاشور :" بعد أن نوه بالقرآن وما اشتمل عليه من تصاريف اصلاح الناس وكان النبى -ﷺ- حريصا على صلاح الأمة شديد الاهتمام بنجاتهم ، لا جرم خطرت بقلبه الشريف عقب سماع تلك الآيات رغبة فى الإكثار من نزول القرآن وفى التعجيل به إسراعا بعظة الناس وصلاحهم ، فعلمه بأن يكل الأمر إليه فإنه أعلم بما يناسب حال الأمة العام"[٢]. وهذا التعجل سواء أكان رغبة فى تحصيل العلم أم خوفا من نسيان القرآن المنزل عليه ، أم حرصا منه على صلاح الأمة ، أم مسابقة إلى التقوى ومبادرة إلى تنفيذ أمر الله -ﷻ- فهو محمود لبواعثه المحمودة " لذلك تلطف الله -ﷻ- مع رسوله -ﷺ- حيث اتبع النهى عن التعجل الذى يرغبه بالإذن له بسؤال الزيادة من العلم ؛ مما يدل على أن رغبته فى التعجل رغبة صالحة"[٣] فقال له" وقل رب زدنى علما" والمعنى : "سل الله الزيادة فى العمل دون الاستعجال بتلاوة الوحى فإن ما أوحى إليك يبقى لا محالة"[٤] ومعنى" علما" قيل قرآنا وقيل فهما ، وقيل حفظا[٥].

والكل مراد ؛ لأن طلب النبى الزيادة مراد به زيادة فى نزول القرآن ، وزيادة فى فهمه وفهم أحكامه ، وزيادة فى حفظه وتدبره ، روى عن أبى هريرة -رضي الله عنه- أن النبى -ﷺ- كان يقول : اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى بما ينفعنى وزدنى علما ، والحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار"[٦]. قال ابن كثير :" لم يزل -ﷺ- فى زيادة حتى توفاه الله-ﷻ-"[٧].

مما سبق بيانه يتضح أن رسول الله -ﷺ- تعجل بتلاوة القرآن بداية نزوله عليه ، وهو تعجل ليس بمذموم ، وإنما هو ممدوح ؛ لبواعثه المحمودة إلا أنه ليس الأفضل والأحسن له -ﷺ- بل الأفضل واللائق به -ﷺ- هو التريث والتمهل حتى ينتهى جبريل من التلاوة ، ثم بعد ذلك يتلوه كما تلى عليه فهذا أفضل من الاستعجال.لذلك استنبط العلماء من هذا النهى بعض الفوائد منها :

"إن المستمع للعلم ينبغى أن يتأنى ويصبر حتى يفرغ المملى والمعلم من كلامه المتصل بعضه ببعض ، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال ، ولا يبادر بالسؤال وقطع كلام ملقى العلم ، فإنه سبب

---

[١] نظم الدرر ٣٥٢/١٢ بتصرف .
[٢] التحرير والتنوير ٣١٦/١٦ بتصرف .
[٣] التحرير والتنوير ٣١٧/١٦ بتصرف.
[٤] تفسير المراغى ١٥٥/١٦ ، وينظر إرشاد العقل السليم لأبى السعود ٤٤/٦ .
[٥] البحر المحيط ٢٨٢/٦ ، ، وزاد المسير ٣٢٧/٥ ، وتفسير السمرقندى ٣٥٦/٢.
[٦] أخرجه الترمذى فى سننه ، كتاب الدعوات ، باب فى العفو والعافية ٥٧٨/٥ ، قال الترمذى هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.
[٧] تفسير القرآن العظيم ابن كثير ١٦٨/٣ عن ابن عيينة ط. دار الفكر بيروت .

للحرمان ، وكذلك المسئول ينبغى أن يستملى سؤال السائل ويعرف المقصود منه قبل الجواب فإن ذلك سبب لإصابة الصواب[١].

- ومنها : "إن التدبر فى العمل أنفع من الاستعجال المتعب للبال المكدر للحال ، وأعون على الحفظ [فمن وعى شيئا حق الوعى حفظه غاية الحفظ][٢].

- ومنها :" إن العلم خير وكثرة الخير مطلوبة ، والطريق إليها الاجتهاد ، والشوق للعلم وسؤال الله والاستعانة به والافتقار إليه فى كل وقت"[٣] وصدق سيد قطب إذ يقول" وما العلم إلا ما يعلمه الله ، فهو الباقى الذى ينفع ولا يضيع ويثمر ولا يخيب"[٤].

ثانيا إذنه -ﷺ- للمنافقين للتخلف عن غزوة تبوك:

بلغ رسول الله -ﷺ- وهوفى المدينة أن الروم يعدون العدة لقتاله ، ويجهزون الجيوش للإنقضاض عليه وعلى المسلمين ومحاربتهم ، وما أن علم -ﷺ- بذلك إلا وسارع بالاستعداد والتجهيز لمهاجمتهم وذلك فى رجب من السنة التاسعة للهجرة"[٥].

يقول ابن هشام فى سيرته :"وذلك فى زمان من عسرة الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد ، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه ، وكان رسول الله -ﷺ- قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يصمد له إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذى يصمد له ؛ ليتأهب الناس لذلك أهبته ، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم"[٦]. "وكان دأب المؤمنين إذا دعوا إلى الجهاد لبوا مسرعين نشطين ، لأنهم ينتظرون احدى الحسنيين : إما الشهادة والأجر ، أوالغنيمة والنصر ، ولما دعاهم الرسول -ﷺ- إلى غزوة تبوك تثاقل بعضهم لأسباب رآها ، هذا التثاقل تختلف درجاته تبعا لقوة الإيمان وشدة العذر ، وقد نفرت الأكثرية طائعة وتخلف قلة عاجزة معذورة ، أما المنافقون فقد كبر عليهم الأمر وشق عليهم الخطب ، كيف يقاتلون فى تبوك أكبر دولة فى العالم ؟! فطفقوا ينتحلون الأعذار ، ويستأذنون فى القعود والتخلف فيأذن لهم الرسول -ﷺ- قبل بيان حالهم والوقوف على

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ، لـ السعدى صـ ٥١٤ .
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي /٣٥٢ بتصرف .
(٣) تيسير الكريم الرحمن ، لـ السعدى صـ ٥١٤ .
(٤) الظلال لسيد قطب ٢٣٥٣/١٦ .
(٥) انظر السيرة النبوية لابن هشام أبى محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ١١٨/٤ ، دار الجيل ، بيروت علق عليه / طه عبد الرؤوف ، والبداية والنهاية ٢/٥ .
(٦) السيرة النبوية لابن هشام ١١٨/٤ ، وينظر تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون صـ ٣٢٥ - الطبعة الثانية ١٣٨٣ - ١٩٦٤ - الناشر المؤسسة العربية الحديثة .

أسرارهم"([1]). فيخاطب الله -ﷻ- رسوله معاتبا له متلطفا معه:"**عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين**"([2]).

والمعنى كما قال ابن جرير الطبرى:"عفا الله عنك يا محمد ما كان منك فى إذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك فى ترك الخروج معك ، وفى التخلف عنك من قبل أن تعلم صدقهم من كذبهم ... وما كان ينبغى لك أن تأذن لهم فى التخلف عنك إذ قالوا لك: لو استطعنا لخرجنا معك ، حتى تعرف من له العذر منهم فى تخلفه ، ومن لا عذر له منهم ، فيكون إذنك لمن أذنت له منهم على علم منك بعذره ، وتعلم من الكاذب منهم ، المتخلف نفاقا وشكا فى دين الله"([3]). ونلاحظ فى السياق القرآنى أن هذه الآية وردت بعد قوله "**لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك**"([4]). "إذ توضح أن قوما تخلفوا عن الغزو وليس فيها بيان أن ذلك التخلف كان بإذن الرسول أم لا ، فلما قال بعده "**عفا الله عنك لم أذنت لهم**" دل هذا على أن فيهم من تخلف بإذنه"([5]) فالعتاب من الله -ﷻ- لحبيبه -ﷺ- لتعجله بالإذن لهم إذ لو تريث لتبين له صادقهم من كاذبهم .

"ولقد تمسك الطاعنون فى عصمة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بهذه الآية على صدور الذنب عن رسول الله -ﷺ- من وجهين : الأول : أنه تعالى قال [عفا الله عنك] والعفو يستدعى سابقة الذنب ، والثانى : أنه تعالى قال [لم أذنت لهم] وهذا استفهام بمعنى الإنكار فدل هذا على أن ذلك الإذن كان معصية وذنبا"([6]). ولقد أجاب الإمام الرازى عن ذلك فى تفسيره قائلا:

أما الجواب عن الأول : فلا نسلم أن قوله [عفا الله عنك] يوجب الذنب ، ولم لا يجوز أن يقال: إن ذلك يدل على مبالغة الله فى تعظيمه وتوقيره ، كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظما عنده: عفا الله عنك ما صنعت من أمرى؟ ورضى الله عنك ما جوابك عن كلامى؟ وعافاك الله ما عرفت حقى ! فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا مزيد التبجيل والتعظيم"([7]).

قال الإمام القرطبى: "هو افتتاح كلام كما تقول : أصلحك الله وأعزك ورحمك ! كان كذا وكذا ، وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على قوله [عفا الله عنك] وقيل المعنى عفا الله عنك ما كان من ذنبك فى أن أذنت لهم فلا يحسن الوقف على قوله [عفا الله عنك] على هذا التقدير"([8]) وقال النحاس: "وهو أولى ويدل على هذا [لم أذنت لهم] لأنه لا يقال : لم فعلت ما أمرتك به؟"([9]).

---

(1) التفسير الواضح ٨٨٩/١ .

(2) سورة التوبة ، الآية: ٤٣ .

(3) جامع البيان للطبرى ١٤٢/١٠ .

(4) سورة التوبة من الآية ٤٢ .

(5) مفاتيح الغيب للرازي ، المجلد الثامن ٥٩/١٦ بتصرف .

(6) مفاتيح الغيب ، المجلد الثامن ٥٩/١٦ .

(7) مفاتيح الغيب ، المجلد الثامن ٥٩/١٦ .

(8) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد الرابع ٩٩/٨ - ط. الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، وينظر المحرر الوجيز ٣٨/٣ .

(9) إعراب القرآن للنحاس ٢١٧/٢ .

وأما الجواب عن الثاني : فلا يجوز أن يقال: إن المراد بقوله : لم أذنت لهم الإنكار ، لأنا نقول: إما أن يكون ما صدر عن رسول الله -ﷺ- ذنب فى هذه الواقعة أو لم يصدر عنه ذنب ، فإن قلنا إنه ما صدر عنه ذنب امتنع على هذا التقدير أن يكون قوله: [لم أذنت لهم] إنكارا عليه ، وإن قلنا إنه قد صدر عنه ذنب فقوله: [عفا الله عنك] يدل على حصول العفو عنه وبعد حصول العفو عنه يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه ، فثبت أنه على جميع التقادير يمتنع أن يقال: إن قوله [لم أذنت لهم] يدل على كون الرسول -ﷺ- مذنبا ، وهذا جواب شاف قاطع ، وعند هذا يحمل قوله [لم أذنت لهم] على ترك الأولى والأكمل ولا سيما وهذه الواقعة كانت من جنس ما يتعلق بالحروب ومصالح الدنيا"[١].

من خلال هذه الردود التى أفحم بها الإمام الرازى منكرى عصمة الأنبياء ، يتبين أن سيدنا محمد أذن للمنافقين قبل أن يؤمر بذلك ، وهو لا يعد ذنبا ؛ لأنه حكم باجتهاده وفيما لم يرد به نص أو وحى ، وفعل ما هو الأفضل والأيسر عنده ، وإن كان الأولى والأفضل واللائق به -ﷺ- التريث والانتظار والتأنى حتى تتكشف أمورهم وتظهر للعيان ، يقول الدكتور محمد رشيد رضا: الإذن المعاتب عليه الرسول -ﷺ- اجتهادا منه فيما لا نص فيه من الوحى ، وهو جائز وواقع من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وليسوا بمعصومين من الخطأ فيه وإنما العصمة المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحى ببيانه والعمل به ، فيستحيل على الرسول أن يكذب أو يخطىء فيما يبلغه عن ربه أو يخالفه بالعمل ... وغاية ما فيه هنا أنه مخالف لما يقتضيه الحزم ، وكان من لطف الرب اللطيف الخبير ، برسوله البشير النذير أن أخبره بالعفو عنه قبل بيانه له"[٢].

"فالرسول -ﷺ- لم يخالف نهيا تقدم له ، وإنما ترك فى هذا الأمر لاجتهاده ، والانسان فى اجتهاده يحكم بحسب ما يظهر له ، والرسول -ﷺ- كبشر قد أظهر له هؤلاء الناس أنهم لا يستطيعون الخروج معه للغزو ، والمنافقون كانوا - مبالغة منهم فى التهوية والخداع وإخفاء حقيقتهم- يحلفون بالله على ما يقولون" **اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون**[٣]" فلا جرم أن يصدقهم كل من يسمعهم ، والنبى كبشر لا اطلاع له على بواطنهم إلا فيما يطلعه الله عليه منهم ، وحتى وقت الإذن لهم فى التخلف لم يكن قد أطلعه الله على أنهم منافقون كاذبون ، فلا معصية إذن من النبى -ﷺ- وإنما مخالفة الأولى ، إذ كان الأولى به أن يتوقف عن الإذن حتى ينكشف أمرهم ، ويتبين الصادق فى العذر من الكاذب"[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب المجلد الثامن ١٦/٦٠ .

(٢) تفسير المنار صـ ٤٦٥ - ٤٦٦ بتصرف ، وينظر النبوة والأنبياء لمحمد على الصابونى صـ٩٢ .

(٣) سورة المنافقون ، الآية: ٢.

(٤) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم للدكتور محمد أبو النور الحديدى صـ ٤٧٥ ، ٤٧٦.

قال الإمام الألوسى -رحمه الله- فى معنى الآية: "لم سارعت إلى الاذن لهم ولم تتوقف حتى ينجلى الأمر كما هو قضية الحزم اللائق بشأنك الرفيع يا سيد أولى العزم"[1]. فهم كانوا مصرين على القعود ، أذن لهم رسول الله -ﷺ- أو لم يأذن ، فلو تبين له الصادق من الكاذب لم يأذن لهم ، فحينئذ يكون قعودهم مخالفة لإذن الرسول -ﷺ- فينكشف نفاقهم ويظهر خداعهم ، قال الشيخ/ سيد قطب: "تدارى المتخلفون خلف إذن الرسول -ﷺ- لهم بالقعود حين قدموا له المعاذير ، وقبل أن ينكشف صدقهم من كذبهم فى هذه المعاذير ، وكانوا سيتخلفون عن الركب حتى ولو لم يأذن لهم ، فعندئذ تنكشف حقيقتهم ويسقط عنهم ثوب النفاق ، ويظهرون للناس على طبيعتهم ، ولا يتوارون خلف إذن الرسول-ﷺ-"[2].

ولقد روى عن مجاهد أنه قال: "نزلت هذه الآية فى إناس قالوا : استأذنوا رسول الله فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا"[3]. لذلك كان إنكار المولى -ﷻ- عليه لمخالفته الأولى ، إلا أنه -ﷻ- تلطف مع حبيبه المختار فأخبره بالعفو قبل الإنكار على الذنب. قال الإمام القرطبى:" أخبره بالعفو قبل الذنب لئلا يطير قلبه فرقا"[4]. "وتعجيلا للمرة إذ لو أخر عن جملة العتاب لأوجد خوفا وحزنا"[5].

فالآية عتاب من الحبيب لحبيبه ، وهو عتاب تلطف ، كذا سنة الأحباب مع الأحباب ، قال الإمام القشيرى: "يقال حسنات الأعداء – وإن كانت حسنات – فكالمردودة ، وسيئات الأحباب – وإن كانت سيئات – فكالمغفورة ....

من ذا يؤاخذ من يحب بذنبه ***** وله شفيع فى الفؤاد مشفع"[6].

والعفو كما قال ابن منظور: "هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه ، وأصله المحو والطمس ، وهو من أبنية المبالغة يقال عفا يعفو عفوا فهو عاف وعفو"[7]. فالمولى ﷻ يعلمنا حسن الأدب مع مصطفاه سيدنا محمد -ﷺ- بهذا التلطف ، إلا أن الإمام الزمخشرى قد أساء الأدب فى حقه -ﷺ- عند تفسيره لهذه الآية حيث قال مانصه : "[عفا الله عنك] كناية عن الجناية ؛ لأن العفو رادف لها ، ومعناه : أخطأت وبئس ما فعلت ، و[لم أذنت لهم] ؟ بيان لما كنى عنه بالعفو ، ومعناه مالك أذنت لهم فى القعود عن الغزو حيث استأذنوك واعتلوا لك بعللهم ، وهلا استأنيت بالإذن حتى يتبين لك من صدق فى عذره ممن كذب فيه"[8]. و فى قول الإمام الزمخشرى عبارتان أساء فيهما الأدب مع النبى -ﷺ-:

أولاهما : قوله إن [عفا عنك الله] كناية عن الجناية ، لأن العفو مرادف لها .

---

(1) روح المعانى ١٠٧/١٠ .

(2) فى ظلال القرآن المجلد الثالث ١٦٦٢/١٠ .

(3) تفسير مجاهد ٢٨٠/١ ، وانظر تفسير القرآن العظيم لـ ابن كثير ٣٦١/٢.

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد الرابع ٩٩/٨ .

(5) أيسر التفاسير لأبى بكر جابر الجزائرى ٣٧٢/٢ .

(6) لطائف الإشارات للقشيرى ٣١/٢ .

(7) لسان العرب ٣٠١٨/٤ - باب العين - مادة عفا - .

(8) الكشاف ٢٦١/٢ - ٢٦٢ .

والثانية : قوله عقب العبارة السابقة – معناه : أخطأت وبئس ما فعلت.

وهاتان العبارتين قد استقبحهما العلماء المنصفون العارفون لما يجب لـه -ﷺ- من الإجلال والتعظيم والتبجيل ، ومن هؤلاء العلماء الإمام أحمد بن المنير الإسكندرى حيث قال: " ليس لـه – الزمخشرى – أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير وهو بين أحد أمرين : إما أن لا يكون هو المراد ، وإما أن يكون هو المراد ، ولكن قد جل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب وخصوصا فى حق المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فالزمخشرى على كلا التقديرين ذاهل عما يجب من حقه عليه الصلاة والسلام ، ولقد أحسن من قال فى هذه الآية : إن من لطف الله تعالى بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب ، ولو قال لـه ابتداءا : لم أذنت لهم ؟ لتفطر قلبه عليه الصلاة والسلام ، فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه فى حق سيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام"[1].

وقال الإمام الألوسى : " لقد أخطأ وأساء الأدب وبئسما فعل فيما قال وكتب صاحب الكشاف كشف الله تعالى عنه ستره ، ولا أذن له ليذكر عذره حيث زعم أن الكلام كناية عن الجناية وأن معناه أخطأت ... ويا سبحان الله!! من أين أخذ -عامله الله تعالى بعدله- ما عبر عنه ببئسما؟ والعفو لو سلم مستلزم للخطأ فهو غير مستلزم لكونه من القبح واستتباع اللائمة بحيث يصحح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء ويسوغ إنشاء الاستقباح بكلمة بئسما المنبئة عن بلوغ القبح إلى رتبة يتعجب منها"[2].

وقد ذكر صاحب " تفسير المنار " كلاما لطيفا فى منتهى الإبداع والاتقان ننقل طرفا منه حيث قال رحمه الله: "هذا وإن بعض المفسرين – ولا سيما الزمخشرى – قد أساءوا الأدب فى التعبير عن عفو الله تعالى عن رسوله -ﷺ- فى هذه الآية وكان يجب أن يتعلموا منها أعلى الأدب معه -صلوات الله وسلامه عليه- إذ أخبره ربه بالعفو عنه قبل الذنب وهو منتهى التكريم واللطف ، وبالغ آخرون كالرازى فى الطرف الآخر ، فأرادوا أن يثبتوا أن العفو لا يدل على الذنب ، وغايته أن الإذن الذى عاتبه الله عليه هو خلاف الأولى ... ثم قال : والذنب فى اللغة ليس مرادفا للمعصية وإنما هو كل عمل يستتبع ضررا ، أو فوت مصلحة أو منفعة ، مأخوذ من ذنب الدابة ، وإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحة المنصوصة فى الآية وهى تبين الصادقين والعلم بالكاذبين"[3]. فالمصلحة الفائتة ليست من قبيل المصالح التى يترتب عليها ندما أو هما أو حزنا لفواتها ، إذ ليس فيها مصلحة أو منفعة للمسلمين بل على العكس ، فخروجهم كان سيضر بالمسلمين ، إذ كانوا ينشرون الفتن بينهم ، ويوقعون بهم ، وهذا ما أوضحه الإمام أبو السعود فى تفسيره حيث قال: "ولا يخفى أنه لم يكن فى خروجهم مصلحة للدين أو منفعة للمسلمين بل كان فيه فساد وخبال ، حسبما نطق به قوله تعالى: **"لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم ..."**[4].

---

(1) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف لابن المنير الإسكندرى بهامش الكشاف للزمخشرى ١٩٢/٢ دار المعرفة - بيروت .

(2) روح المعانى ١٠٨/١٠ - ١٠٩ ، وينظر إرشاد العقل السليم لـ أبى السعود ٦٩/٤ .

(3) تفسير المنار ٤٦٥/١٠ .

(4) سورة التوبة ، من الآية: ٤٧ .

وقد كرهه سبحانه وتعالى كما يفصح عنه قوله: "**ولـكن كره الله انبعاثهم**"(١) نعم! كان الأولى تأخير الإذن حتى يظهر كذبهم ويفتضحوا على رؤوس الأشهاد ، ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعة ، ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم بأنهم غروه -ﷻ- ورأضوه بالأكاذيب ، على أنه لم يهنأ لهم عيش ولا قرت لهم عين ، إذ لم يكونوا على أمن واطمئنان بل كانوا على خوف من ظهور أمرهم وقد كان"(٢).

ثم وضح الله -ﷻ- الغاية التى يباح فيه الإذن وهى التبين بقوله "**حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين**" و[حتى] متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام تقديره [هلا أخرتم إلى أن يتبين أو ليتبين] ، وقوله [لما أذنت لهم] يدل على المحذوف ، ولا يجوز أن يتعلق حتى بأذنت ، لأن ذلك يوجب أن يكون أذن لهم إلى هذه الغاية أو لأجل التبين وهذا لا يعاتب عليه"(٣).

والمعنى : "حتى يتبين لك غاية البيان الذين صدقوا فى التزام الأوامر بما أقروا به من كلمة التوحيد ، وتعلم الكاذبين فيما أظهروا من الإيمان باللسان ، فإنك إن لم تأذن لهم لقعدوا بلا إذن غير مراعين ميثاقهم الذى واثقوك عليه بالطاعة فى اليسر والعسر والمنشط والمكره"(٤) لذلك رخص المولى له -ﷻ- الإذن -إن شاء- فى سورة "النور" بقوله:" **فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم**" وذلك بعد أن تبين له حالهم ، قال الإمام الشوكانى: "ويمكن أن يجمع بين الآيتين بأن العتاب هنا متوجه إلى الإذن قبل الإستثبات حتى يتبين الصادق من الكاذب ، والإذن هنالك متوجه إلى الإذن بعد الإستثبات"(٥).

هكذا عاتب الله نبيه محمد -ﷺ- ليعلمه الأخذ بالأكمل والأفضل والتريث فى مثل هذه الأمور الدقيقة ، ولهذا فلقد أخذ العلماء من هذه الآية " وجوب الاحتراز عن العجلة ووجوب التثبت والتأنى وترك الاغترار بظواهر الأمور والمبالغة فى التفحص ؛ حتى يمكن معاملة كل فريق بما يستحق من التقريب أو الإبعاد"(٦).

---

(١) سورة التوبة ، من الآية: ٤٦ .

(٢) إرشاد العقل السليم لـ أبى السعود ٦٩/٤ .

(٣) التبيان فى إعراب القرآن ٦٤٥/٢ - ٦٤٦ .

(٤) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ٤٨٢/٨ .

(٥) فتح القدير ٣٦٥/٢ .

(٦) مفاتيح الغيب المجلد الثامن ٦٠/١٦ - ٦١ بتصرف ، وفتح القدير ٣٦٥/٢ .